كتاب الهلال

د. محمود الضبع

طه حسين

لغو الصيف وجد الشتاء



قراءة ثقافية

طه حسين

لغو الصيف وجد الشتاء

قراءة ثقافية

د. محمود الضبع

دار الهلال

2014

إهداء

إلى هذا الشعب الذي لديه ما يمتلكه،

ويدفعه للأمام.

مقدمة

ما الذي يدفعنا الآن لأن نعود إلى الوراء، - فنبحث في نص قديم تجاوز تاريخ إنتاجه ثلاثة أرباع القرن؟ هل لأن الحنين إلى الماضي يفرض وجوده في لحظات الضعف والانهيار؟- أم لأننا ما زلنا لم نستطع تجاوز هذا الماضي ومن ثم نحتاج إلى أن نعيد تمثله وإعادة قراءته من جديد؟

أم أنه التواصل الطبيعي فيما يعرف بالتراكم المعرفي وبناء اللاحق على السابق؟

ألم تؤسس الحداثة قطيعتها مع الماضي؟

وهل نحن بالفعل - في ثقافتنا العربية المعاصرة- عايشنا الحداثة وما بعد الحداثة معايشة فعلية، أم أنها كانت سحابة صيف مرت، أو توشك أن تمر؟

غير أنه ينبغي هنا التفريق بين نمطين من أنماط الفكر التراثي، - أحدهما الفكر المرتبط بزمانه وبيئته، وهو ما يمثل

أهمية بوصفه خلفية مرجعية للتاريخي يكشف عن بدايات الأشياء ومراحلها الأولية، وثانيهما الفكر المتحرر من الحدود الزمانية والمكانية والسياقات التاريخية، مثل كتابات عبدالقاهر الجرجاني، وحازم القرطاجني، وطه حسين، والعقاد، وغيرهم كثير، مما ارتبطت كتاباتهم بالفكر الإنساني وتجلياته الإبداعية عموما، وستظل كتاباتهم قادرة على الإنتاج مادام هناك بحث وتفكير.

لقد استطاع أمثال هؤلاء أن يتجاوزوا حدود التخصص، ويعبروا الفواصل الدقيقة والواهية، ليمزجوا بين نوعين أو ثلاثة أو أكثر من الحقول المعرفية فيما يسمى "بالدراسات البينية" في فكرنا المعاصر، وهي الدراسات التي تمثل توجه ومستقبل الفكر العالمي الآن، وقد أنشئت لها مراكز وقطاعات خاصة بها.

وتمثل نصوص طه حسين "لغو الصيف، وجد الشتاء"

نمطا من أنماط هذه الدراسات البينية، لما حوته من قراءة للمشهد الأدبي والثقافي في عصره، وما تضمنته من رصد لعلاقات التأثير والتأثر بين الثقافتين العربية والغربية وبخاصة فرنسا، وما تناولته بالنقد والتحليل لكتابات طلائع هذا العصر ممن صاروا بعد ذلك روادا، أمثال توفيق الحكيم، والزيات، لكن ما أشبه الليلة بالبارحة كما يقول الأثر، فقراءة المشهد الثقافي في عصر طه حسين تثير كثيرا من التداعيات التي نعيشها اليوم، وكأنا نعود للوراء عشرات السنين، وكأنا نبدأ من جديد.

لقد تم نشر هذه النصوص في شكل مقالات مسلسلة في مجلة الرسالة للزيات بدءا من العدد الثاني عشر في الأول من يوليو عام 1933م، وكان آخرها في العدد الثامن والعشرين الصادر في الأول من يناير عام 1934م، وهي مرحلة كانت تشهد فيها مصر حالة من الازدهار الثقافي في

الفكر والإبداع والسينيما والإنتاج الثقافي عموما.

فقد ظهرت في هذه المرحلة كتابات توفيق الحكيم: أهل الكهف، وعودة الروح، وكتابات: أحمد أمين، وعلي مصطفى مشرفة، وعبدالحميد يونس، وعبدالوهاب عزام، وزكي مبارك، ومحمد عبدالله عنان، وأحمد زكي، وشهدي عطية الشافعي، ومصطفى جواد، وزكي نجيب محمود، ومحمد فريد أبو حديد، وفخري أبو السعود، وأسماء فهمي، وسهير القلماوي، وأحمد زكي أبو شادي، وغيرهم كثير من أعلام الفكر والأدب الذين صاغوا المشروع الحضاري المصري.

وهي المرحلة التي أنتجت جيلا خرج من تحت عباءتهم وتواصل معهم ووقف صنوا لهم على خط سواء في سياق المجد، ومنهم في الأدب: نجيب محفوظ، ويوسف إدريس، ويوسف السباعي، وعلى أحمد باكثير، وغيرهم ممن سلم الراية لأجيال أتت من بعده حتى يومنا هذا.

والآن ونحن في العقد الثاني من الألفية الثالثة، نجد أنفسنا مرة أخرى نحتاج لأن نقرأ تراثنا من جديد، وأن نعود إلى نقاطه المضيئة والمشرقة لنتمثلها من جديد، وأن نبحث فيه مرة أخرى للوقوف على المنسي والمجهول مما يمثل قيمة تتعدد دلالاتها وتتسع، لتصل إلى حاضرنا، الذي نجد أنفسنا فيه في أمس الحاجة لإعادة بناء وترتيب مفاهيمنا وأوضاعنا الثقافية بعد أن هيمنت علينا روافد الفكر الغربي ونظرياته، وآلت جميعها إلى لاشيء، لأنها لا يمكن أن تكون البديل الكامل والنهائي عن هويتنا الثقافية، وإن كان لايمكن لها أن تنفصل عن السياقات العالمية، فالظرف غير الظرف.

من هنا تأتي هذه القراءة الثقافية في "لغو الصيف وجد الشتاء" لطه حسين، بما يحمله من أفكار ومفاهيم تمس الحداثة وما بعد الحداثة في صيغها العربية كما يمكن أن

تكون، وتكشف كيفية حل المعادلة بين استلهام الوارد العالمي، والإعلاء من قيمة المحلي، وبين التراث والمعاصرة، وكيف يمكن لمسارات التجريب أن تنفتح استنادا إلى أسس، وليس استنادا إلى القطيعة مع التراث، أو الاعتماد على الوارد العالمي فقط.

هكذا تطرح مقالات "لغو الصيف، وجد الشتاء" المداخل المتعددة لقراءتها ثقافيا، من متابعات نقدية، وطرح صيغ توافقية، وحضور الآخر والأنا، والتأسيس لوعي مغاير كان له أثره الكبير في صياغة الفكر العربي والتقدم به للأمام، تماما كما تقتضي ظروفنا اليوم، فمفهوم الهوية الثقافية تعاد صياغته من جديد، والعلوم العربية في حاجة لإعادة كتابة على اختلاف تخصصاتها، وأما الأدب ونظرياته فالحاجة لإعادة النظر فيهما أمس بعد هذه السنوات الطويلة من التغريب وقراءة النص الأدبي العربي بمنظور فكري غربي

وفصله عن سياقاته العربية، إلى الدرجة التي جعلت النص ذاته يحمل بذور التغريب في كثير من ملامحه.

ما أحوجنا إذا لقراءة نصنا العربي بوعي حضاري ينطلق من هويتنا العربية الثقافية دون الانفصال عن الثقافات العالمية والإقليمية على حد سواء، من هذه الوجهة نعيد قراءة طه حسين والتوقف أمام ملامح الوعي الحضاري والثقافي كما نأمل لها أن تكون عليه.

والله المستعان....،

د. محمود الضبع

القاهرة 2014م

طه حسين ومعاركه الأدبية

يعد طه حسين (1889 - 1973م) أحد الأعلام القلائل الذين يخلدهم التاريخ، بما له من تأثير في تشكيل الوعي العربي إجمالا، سواء بمؤلفاته، أو بقضاياه التي أثارها، والتي لم يزل الكثير منها مطروحا في حياتنا المعاصرة يمثل إشكالات كبرى لم يتم التوصل فيها إلى حل بعد.

مائة عام مرت على حصول طه حسين درجة الدكتوراه، التي تعد أول دكتوراه في الجامعة المصرية، والتي بدأت معها معارك أكاديمية امتد تأثيرها إلى خارج حدود المؤسسة الجامعية واشتبكت مع الوعي العام، والمؤسسات الرسمية للدولة (البرلمان مثلا)،ومضت معها السنون، ولم تزل معارك طه حسين الأكاديمية مثار جدال، ومواضع خلاف بين المعنيين، بدءا من حرية الفكر، واستمرارا مع الإمكانات المتاحة لإعادة النظر في مرتكزاتنا الثقافية وإمكانية نقدها، ومدى قبول النتائج العلمية في ذلك.

إنها مسيرة بدأها طه حسين، وفتحت الباب واسعا لتقوم المؤسسة الجامعية بدور تنويري في إعادة بناء المجتمع، غير أن الطريق انحرف عن مساره في كثير من الأحيان، وما زلت الأكاديمية المصرية موضع تساؤل حول دورها أيقتصر على مجرد نقل العلم للطلاب ؟ أم يتجاوزه إلى القيام بأدوار أخرى لها أثرها في تطوير وعي المجتمع وأنماطه الثقافية ؟

مسيرته العلمية

في قرية الكيلو بالقرب من مغاغة (إحدى مدن محافظة إلمنيا) بدأت مسيرة تعليم طه حسين الدينية حيث التحق بالكتاب على غرار أبناء عصره، ثم غادر إلى القاهرة للالتحاق بالأزهر الشريف عام 1902م، واستمر في دراسته به، لكنه لم يكن راضيا عن هذه الدراسة، ولا عن طرائقها، وفي عام 1908م بدا هذا التبرم واضحا، فغادر معظم محاضرات الشيوخ الاتباعيين – كما أسماهم – واقتصر على حضور قليل منهم، مثل دروس الأدب، ودروس الشيخ

بخيت، واتجهت أنظاره نحو فروع المعرفة التي لم يكن الأزهر الشريف يوليها عناية، فحفظ مقامات بديع الزمان الهمزاني، ومقامات الحريري، والتقى معه في هذا التوجه الشيخ حسين المرصفي (أستاذ البارودي وشوقي والزيات)، فبغضا سويا طرائق التدريس في الأزهر، وأحبا الحرية والنقد وروح التمرد.

لقد كانت الأعوام الأربعة التي قضاها طه حسين في دراسته بالأزهر أبغض الأعوام إلى قلبه، مرت وكأنها أربعون عاما – كما ذكر طه حسين نفسه في أكثر من موضع – فقط لأنها كانت عقيمة الفكر بالنسبة له، رتيبة الإيقاع، عقيمة المنهج، عقيمة في طرائق التدريس والقائمين عليه.

وقد كوّن طه حسين وصاحبيه أحمد حسن الزيات ومحمود الزناتي في هذا الزمن جماعة شغلت نفسها بنقد الأزهر وتفضيل الكتب القديمة على مناهج وكتب الأزهر، وقرأوا دواوين الشعر القديم والحديث، وتتلمذوا حينها على

يد الإمام محمد عبده الذي علمهم التمرد على طرائق الاتباعيين من مشايخ الأزهر آنذاك، وقد أسفرت هذه المرحلة عن طرد طه حسين من الأزهر الشريف ولم يعد إليه إلا بعد أن تدخل أحد شيوخه الكبار لإعادته.

وكان العام 1908م فاتحة الخير الذي جاء وكأنه فتح طاقة في السماء يعبر منها طه حسين وأمثاله، إذ افتتحت جامعة فؤاد الأول (الجامعة المصرية لاحقا) أبوابها، فكان من أوائل المنتسبين إليها، ووجد فيها ما كان ينشده من علوم عصرية، فدرس الحضارة الإسلامية علي يد أحمد زكي (باشا)، ودرس على يد أساتذة مصريين وأجانب: التاريخ، والجغرافية، واللغات الشرقية (حبشية – سريانية – عبرية)، والحضارة المصرية القديمة، والفلك، والأدب، والفلسفة، وغيرها من العلوم التي كانت نفسه تبحث عن مثيلاتها.

غير أن صلته – على الرغم من كونه طالبا في جامعة فؤاد الأول واتصاله بالحداثة الفكرية - لم تنقطع تماما بمؤسسة الأزهر التعليمية، فقد ظل محافظا على حضور

دروسه والمشاركة في ندواته اللغوية والدينية، واستمر على هذا المنوال حتى حصل على أول دكتوراه تمنحها الجامعة المصرية، وكانت حول أبي العلاء المعري في مايو 1914م، وهي السنة التي أثيرت فيها ضده الضجة الهائلة التي اتهمته بالكفر والإلحاد بسبب كتابه (رسالته للدكتوراه)، وطالب أحد أعضاء البرلمان بحرمانه من درجته الجامعية.

وتدخل سعد زغلول وجعلها معركة برلمانية للدفاع عن طه حسين، وللثورة ضد ما أسماه الطرق المعوجة في الفهم والمناهج القديمة في التفكير، وكانت الأزمة قد بلغت غايتها عند طه حسين، وضاقت عليه الأحوال، لولا هذا التدخل من قبل سعد زغلول، ولولا العناية الإلهية التي فتحت أمامه بوابة الخروج من الأزمة.

السفر إلى فرنسا

تدخلت العناية الإلهية للمرة الثانية، فأرسلت إليه البعثة العلمية إلى مونبلييه من قبل الجامعة، وسافر إلى فرنسا في العام نفسه – عام 1914م.

وفي مونبلييه بدأت مرحلة جديدة من حياة طه حسين، فدرس في جامعاتها الآداب الفرنسية والعالمية، وعلم النفس، والتاريخ الحديث، وعاد بعد عام واحد – سنة 1915م - لأسباب مالية تتعلق بالجامعة ليقضي ثلاثة أشهر في مصر أثار خلالها العديد من المعارك حول المقارنة بين طرائق تدريس الأزهر، وطرائق تدريس الجامعات الغربية، وهو ما جعل المسؤولين يتخذون القرار بحرمانه من البعثة، لولا تدخل السلطان حسين كامل، مما سمح له بالعودة لفرنسا لاستكمال دراسته، ولكن هذه المرة إلى باريس عاصمة الفكر والثقافة والفن والفلسفة آنذاك.

وفي باريس درس علم الاجتماع، والتاريخ اليوناني والروماني والحديث، والتقى السويسرية الفرنسية سوزان بريسو وتزوج منها، وتابع دراسته المزدوجة (الآداب والقانون)، وما أتى عام 1918م حتى حصل على درجة الدكتوراه –الثانية– في أطروحة بعنوان " الفلسفة الاجتماعية عند ابن خلدون "، وكانت دراسته فيها على يد عالم الاجتماع

الشهير إميل دور كايم، ثم من بعد وفاته العالم بوجليه، وفي العام ذاته لحصوله على الدكتوراه، حصل على دبلوم الدراسات العليا بدرجة امتياز في اللغة اللاتينية - حول القانون الروماني على وجه التحديد -.

معارك طه حسين الأكاديمية

بدأت معارك طه حسين الأكاديمية منذ وقت مبكر، منذ كان طالبا في الأزهر الشريف – كما مر سابقا – وإن كانت قمة المعارك قد وصلت منتهاها مع حصوله على درجة الدكتوراه في رسالته حول أبي العلاء المعري، وكانت هذه فاتحة المعارك الأدبية والأكاديمية الموثقة.

المعركة الكبرى الأولى (1914م):

كان طباعة كتابه " تجديد ذكرى أبي العلاء " فاتحة المعارك الكبرى في حياة طه حسين، والتي تدخلت فيها الأوساط السياسية والحزبية، وطالبت بسحب درجة الدكتوراه منه واتهامه بالكفر والإلحاد، غير أن القضية تم حفظها في القضاء المصري وقتها لعدم ثبوت الأدلة.

لقد أثار طه حسين العديد من القضايا الصادمة للوعي في كتابه عن أبي العلاء، ففي المقالة الخامسة ناقش العلاقة بين فلسفة أبي العلاء وحكمة الهند وفلسفة أبيقور القائمة على اللذة، وكانت النتيجة النهائية الصادمة للوعي هي إخراج أبي العلاء من الإسلام، يقول طه حسين عن ذلك في تمهيد كتابه بعد عودته من فرنسا وإعادته طبعه:

"وأرجف قوم بأني قد جنيت على المسلمين فأخرجت من بينهم رجلا هو من خلاصتهم، أو جنيت على أبي العلاء فأخرجته من بين المسلمين، ولو أنهم أجادوا التفكير واصطنعوا الأناة لعرفوا أني لا أملك أن أدخل في الإسلام ولا أن أخرج منه أحدا، وأن ليس على أبي العلاء بأس عند الله إذا كان مسلما فعده بعض الناس غير مسلم، ولو قد كانوا قرأوا الكتاب ودرسوه لعرفوا أني لم أقل في أبي العلاء إلا ما قال في نفسه، ولم أصوره في هذا الكتاب إلا بما صور به نفسه في اللزوميات وغيرها من كتبه"[1].

غير أن الوعي العربي آنذاك لم يستطع تحمل مثل هذا القول، ولا يستطيع حتى يومنا هذا أن يتحمله، ذلك أن مناقشة

قضايا الدين ونقدها لم تزل العقلية العربية غير قادرة على تحملها حتى وإن كانت المناقشة تعتمد المنطق العقلي والنقلي وتسوق الأدلة والبراهين، فالانحراف من الحامل إلى المحمول أي من الأشخاص حاملي الدين إلى الدين ذاته ليس في الإمكان تقبله.

المعركة الكبرى الثانية (1926م):

عاد طه حسين إلى مصر، وعين أستاذا للتاريخ اليوناني والروماني عام 1919م - عام ثورة سعد زغلول - واستمر في تدريس هذا التخصص حتى تحولت الجامعة إلى جامعة حكومية عام 1925م، فعين أستاذا لتاريخ الأدب العربي في كلية الآداب.

وكان عام 1926م هو عام الضجة الكبرى في حياته، وبدأت بالمعارك السياسية والأدبية عندما أصدر كتابه "في الشعر الجاهلي "، ورفعت ضده الدعاوى القضائية التي استطاعت الحصول على أمر النيابة بسحب الكتاب من منافذ البيع وإيقاف توزيعه، بعد أن أثارت الصحف المصرية

المعركة على صفحاتها باستضافة آراء المعارضين والمؤيدين، فهاجمه مصطفى صادق الرافعي وفند آراءه في مقالات عدة بعنوان " تحت راية القرآن " نشرتها جريدة " كوكب الشرق "، وجمعت في كتاب بعد ذلك، ودافع عنه أحمد لطفي السيد بدعوى حرية الفكر، ورد عليه الرافعي، وأعاد الكرة لطفي السيد، وهكذا بدأت سلسلة من المعارك الأدبية والفكرية حول طه حسين، وحول آرائه، وحول حرية الفكر والعقيدة، وغيرها من القضايا التي لم تزل تدور الثقافة العربية في فلكها حتى وقتنا الراهن.

وقد اعتمد الرافعي على اقتباس نصوص من كتاب " في الشعر الجاهلي " ورأى فيها خروجا عن الدين، ومنها ما قاله طه حسين:

" للتوراة أن تحدثنا عن إبراهيم وإسماعيل، وللقرآن أن يحدثنا عنهما أيضا، ولكن ورود هذين الاسمين فى التوراة والقرآن لا يكفى لإثبات وجودهما التاريخى، فضلا عن إثبات هذه القصة التى تحدثنا بهجرة إسماعيل وإبراهيم إلى مكة... ونحن مضطرون إلى أن نرى

فى هذه القصة نوعا من الحيلة فى إثبات الصلة بين اليهود والعرب من جهة، وبين الإسلام واليهودية، والتوراة والقرآن من جهة أخرى"[٢] ص 26.

وذلك على الرغم من أن طه حسين كانت له في الكتاب مناقشات في الرد على المستشرقين وبخاصة كليمان هوار في رأيه القائل بأن النبي محمد -عليه السلام- قد استعان بشعر أمية بن أبى الصلت في تأليف القرآن.

يقول طه حسين:

"من ذا الذي يستطيع أن ينكر أن كثيرا من القصص كان معروفا بعضه عند اليهود، وبعضه عند النصارى، وبعضه عند العرب أنفسهم، وكان من اليسير أن يعرفه النبي، كما كان من اليسير أن يعرفه غير النبي. ثم كان النبي وأمية متعاصرين، فلم يكون النبي هو الذي أخذ من أمية، ولا يكون أمية هو الذي أخذ من النبي؟" (في الشعر الجاهلي/ 85).

غير أن الرافعي يرى في ذلك تعريضا من قبل طه حسين، فالمفهوم من كلامه أن النبي محمد هو مؤلف القرآن،

ويدلل على ذلك بقول طه حسين في حديثه عن الشعر الجاهلي وعلاقته بالقرآن الكريم بأن "القرآن ليس في حاجة إلى شواهد من الشعر على ألفاظه ومعانيها عند العرب"

المعركة الكبرى الثالثة (1928م):

لم تكن الضجة التي أثيرت حول كتابه "الشعر الجاهلي" قد هدأت عندما حل عام 1928م، حيث أثار طه حسين معركة ثانية اهتمت لها كل الجهات المعنية، وذلك عندما تم تعيينه عميدا لكلية الآداب بالجامعة (جامعة القاهرة الآن)، حيث رفضت كل الجهات السياسية هذا التعيين، وانتهى الأمر بالمفاوضة معه على تقديم استقالته – ولم يكن قد تسلم مهام منصبه بعد– فاشترط هو أن يعين أولا، وبعدها يقدم استقالته، وبالفعل تم تعيينه ليوم واحد، ثم تقدم باستقالته، وتم إعادة الفرنسي "ميشو" عميدا للكلية.

وظل الأمر على هذا النحو حتى انتهت عمادة "ميشو" عام 1930م، فعين طه حسين عميدا للكلية، ووافق على ذلك وزير المعارف، ولكنه بعد يومين طلب منه الاستقالة بسبب الضغوط السياسية.

المعركة الكبرى الرابعة (1932):

وتعد هذه المعركة أزمة من نوع خاص، لأنها تتعلق بالضمير العلمي للأستاذ الجامعي، ففي فبراير من هذا العام – 1932م- كانت الحكومة المصرية ترغب في منح الدكتوراه الفخرية من كلية الآداب لبعض السياسيين ومنهم إسماعيل باشا صدقي، ولكن طه حسين رفض رفضا باتا، بحجة الحفاظ على مكانة الدرجة العلمية، مما اضطر الحكومة للجوء لكلية الحقوق وقتها، ونفذت بالفعل رغبة الحكومة.

ورداً على موقف طه حسين الذي وصف وقتها بأنه متعنت، قرر وزير المعارف نقله إلى ديوان الوزارة فرفض العمل وتابع الحملة في الصحف والجامعة كما رفض المساومات التي عرضت عليه، وقامت الدنيا ولم تقعد، وتقدم أحمد لطفي السيد مدير الجامعة باستقالته تضامنا مع طه حسين، ووضع شرطا لعودته هو تعديل لوائح الجامعة، وتدخل رئيس الوزراء فأحال طه حسين للتقاعد في التاسع والعشرين من مارس عام 1932م.

ولم تكن الإحالة للتقاعد نهاية المطاف، بل قام طه حسين بما ينبغي على كل مثقف ومفكر وأستاذ عندما تحل الأزمة، وهو التزام مكتبته والبحث والكتابة، وزاد عليه عميد الأدب العربي بنشر مقالات في صحف عدة، منها مجلة الرسالة للزيات، والتي تشهد أعدادها حتى الآن ببزوغ فكرة مقالات على هامش السيرة التي تم تجميعها في كتاب يحمل العنوان ذاته فيما بعد، وكذلك مقالات " لغو الصيف وجد الشتاء " التي لم تجمع في كتاب حتى الآن، وغيرها من المقالات في صحف هذا العصر، والتي مثلت نقلة نوعية في تاريخ الفكر العربي فيما بعد.

ولم يتوقف الأمر عند ذلك، بل اشترى امتياز جريدة "الوادي" وتولى الإشراف على تحريرها، واستمر في القيام بما كان يراه دورا تنويريا وفكريا إلى أن بدأت الأزمة في الانفراج بقرار إعادة إلى الجامعة المصرية في نهاية عام 1934م، وظل يقوم بدوره أستاذا ومحاضرا ومشرفا على الرسائل العلمية ومشاركا في الحياة الفكرية، حتى تم تعيينه مرة أخرى عميدا لكلية الآداب في عام 1936م، واستمر

يمارس عمله ويثير المعارك حتى عام 1939م عندما انتدب مراقبا للثقافة في وزارة المعارف التي استمر فيها زهاء أربع سنوات، أي حتى عام 1942م.

وفي عهد الوفديين – حزب الوفد عندما تولت حكومته – انتدبه وزير المعارف آنذاك نجيب الهلالي للعمل مستشارا فنيا له، ثم مديرا لجامعة الإسكندرية، وظل يمارس مهامه الوظيفية في هذا العمل حتى أحيل للتقاعد عام 1944م، وعاد طه حسين مرة أخرى للتفرغ للكتابة البحث والتأليف حتى حل عام 1950م فعين وزيرا للمعارف في الحكومة الوفدية رغم اعتراض الملك فاروق على تعيينه وزيرا بدعوى كونه من المتطرفين الشيوعيين إضافة لإعاقته البصرية التي ستحول بينه وبين القيام بمهامه الوظيفية، لكن حكومة الوفد أصرت، وأثبت طه حسين كفاءة، واستطاع تحقيق الكثير مما لم يحققه غيره آنذاك، ويكفيه تبنيه وإطلاقه شعار " التعليم كالماء والهواء حق لكل مواطن"، وهو ما كان له كبير الأثر في تشكيل وعي المواطن العربي فيما بعد.

واستمر طه حسين في الوزارة حتى السادس والعشرين من يونيو 1952م المعروف تاريخيا بحريق القاهرة، والذي ترتب عليه حل الحكومة الوفدية بالكامل.

وكان توليه للوزارة آخر منصب حكومي، أو عمل وظيفي يمارسه طه حسين، بعدها تفرغ للبحث والتأليف حتى وفاته في الثامن والعشرين من أكتوبر عام 1973م.

معارك أخرى نوعية:

أثار طه حسين عددا من المعارك النوعية التي أملاها عليه ضميره العام، ومنها:

معركته لصالح الفقراء والفلاحين والعدالة الاجتماعية

وذلك في كتابه "المعذبون في الأرض"[٣]، والذي ظهرت طبعته الأولى في بيروت بسبب رفض الحكومة هذا النوع من الفكر واعتباره ينتمي إلى الشيوعية المنافية لطبيعة المجتمع المتدين.

تضمن الكتاب الآراء المثيرة للجدل، والداعية إلى الثورة على الفقر والجهل، وإلقاء المسؤولية على كاهل الدولة

وحكوماتها ومن يمتلكون القوة أو السلطة فيها، مثل أقواله المتعددة:

" إن المصريين بين اثنين لا ثالث لهما: فإما أن يمضوا في حياتهم كما ألفوها، لايحفلون إلا بأنفسهم ولذاتهم ومنافعهم، وإذن فليثقوا بأنها الكارثة الساحقة الماحقة التي لاتبقي ولا تذر؛ وإما أن يستأنفوا حياة جديدة كتلك التي عرفوها في أعقاب الحرب العالمية الأولى، قوامها التضامن والتعاون وإلغاء المسافات والآماد بين الأقوياء والضعفاء، وبين الأغنياء والفقراء، وبين الأصحاء والمرضى؛ وإذن فهو التآزر على الخطب حتى يزول، وعلى الكارثة حتى تنمحي، وعلى الغمرات حتى ينجلين.إلى أي الطريقين يريد المترفون من المصريين أن يذهبوا: إلى طريق الموت أم إلى طريق الحياة؟"

وهو ما اعتبره أصحاب السلطة والجاه والقوة تأليبا للعامة والجماهير العريضة ضدهم، ومن ثم كانت لهم مواقفهم ضده.

ومنه آراؤه في حقوق المواطنين على الدولة، والتي أثارت ضده رجالات الدولة، عندما أورد في الكتاب:

"إن من الحق علي الدولة أن تُعلم البخلاء كيف يكون الكرم والجود بسلطان القانون، إذا لم يصدر عن يقظة الضمائر وحياة النفوس"

"يجب أن يعلم الموسرون، ان التصدق بالمال خير في أوقات الرخاء والدعة واللين، فإذا اشتدت الشدة وأزمت الأزمة وألمَ الوباء، فالتصدق واجب يفرضه العدل فإن لم ينهض به الأفراد من تلقاء أنفسهم وجب علي الدولة أن تأخذهم به أخذاً"

معركته ضد الجمود الفكري الديني:

والتي بدأت مع كتب "تجديد ذكرى أبي العلاء" عام 1914م، ثم "في الشعر الجاهلي" عام 1926م، واستكمالها مع "الفتنة الكبرى" الذي قدم فيه دراسة تحليلية نقدية لنظام الحكم في الإسلام ومرتكزاته، وجهاده في سبيل تثبيت دعائم الدولة، ومحاربة استغلال النفوذ على يد الخليفة عمر بن الخطاب، ورصده لنشأة المعارضة وأشكالها في الإسلام، وتحليل لأزمة الأمة بعد مقتل عثمان على المستويين الداخلي والخارجي، وهو ما كشف في النهاية الأمر عن عيوب العقلية

العربية في تعاملها مع نظرية الحكم، مما جعل الكثيرين يناصبونه العداء ويتهمونه في عروبته وفي دينه، ويرونه مواليا للغرب ومناهجه.

مؤلفاته وتنوعها:

أثار طه حسين الكثير من القضايا الفكرية في تاريخ الأدب العربي، وبخاصة مع كتابه في الشعر الجاهلي الذي استخدم فيه منهج الشك في دراسة الأدب الجاهلي، بالإضافة إلى مواقفه مع الجامعة المصرية، والقضايا الفكرية التي أثارها في حياته، وبعد وفاته من خلال مؤلفاته التي تنوعت، واتسعت رقعتها، وتعددت موضوعاتها، عبر عناوين كبرى فتحت باب البحث والتنقيب في التراث العربي والواقع الثقافي المعاصر، ومنها: في تجديد ذكرى أبي العلاء، والفتنة الكبرى عثمان، والفتنة الكبرى (علي وبنوه)، وفي الشعر الجاهلي، وفي الأدب الجاهلي، والأيام، ودعاء الكروان(رواية)، وشجرة البؤس (رواية)، والمعذبون في الأرض (رواية). وعلى هامش السيرة. ومن حديث الشعر

والنثر. ومستقبل الثقافة في مصر، وأديب (مسرحية). والشيخان، والوعد الحق، ومع أبي العلاء في سجنه، وفي مرآة الصحفي.، وحافظ وشوقي. والحب الضائع. وألوان (الحياة الأدبية في جزيرة العرب). وتاريخ الإسلام. وجنة الشوك، وجنة الحيوان. وحديث الأربعاء. وحديث المساء. وما وراء النهر. ومرآة الإسلام. ومع المتنبي. ورواية دعاء الكروان. وذلك إضافة لترجماته، ومنها ترجمة: (أندروماك) لراسين سنة 1935م، و(أنتيجون) سوفوكليس عام 1938، و(من الأدب التمثيلي اليوناني) عام 1939، و(من الأساطير اليونانية) لأندريه جيد عام 1946، و(زاريج أو القدر) لفولتير عام 1947، و(أوديب) سوفوكليس عام 1955. كما كتب عددا من الأبحاث والمقالات المتنوعة عن الآداب الأجنبية، وقدم عددا من الكتب المترجمة إلى العربية.

المعارك – إيجابيا:

لم تكن حياة طه حسين الأكاديمية والعلمية صراعا دائما يفسد على الحياة معناها، ولكنها كانت تحمل الجوانب

الإيجابية، فمكانته بين مريديه والمؤمنين بأفكاره كانت تبلغ الآفاق، وقد سبق ذكر موقف سعد زغلول وأحمد لطفي السيد في مؤازرته، وكذلك موقف أعلام عصره في جامعات فرنسا، ولكن الأكثر استمرارا في الذاكرة هو تدبيج القصائد في مديحه، وبخاصة من أعلام شعراء عصره، وبعض الشيوخ المنتمين إلى الفكر الديني، ومؤسسة الأزهر على وجه الخصوص، ومنها:

مدح الشيخ محمد متولي الشعراوي له بقصيدة مطولة في 18 يناير 1955م عندما كان طه حسين يزور مدينة جدة في وفد من العلماء من بينهم الشعراوي، يقول في مطلعها (٤):

حي وفد النهي وركب الرجاء وتنظر يا شرق بعث العلاء

والتي يختتمها بقوله:

يا ولاة الأمور حسبكـــم الله مضينا على تمام البنـــاء

كان في الاحتلال أعذار قـوم فتولى لا عذر بعد الجلاء

قل لليلى لا تيأسي قد خطونا وعلى الله أمر ذاك اللقاء.

وكذلك مديح جورج جرداق صاحب هذه ليلتي لأم كلثوم،

وأحمد الزين، وخليل العقد، والجواهري، وأحمد خيرت، وغيرهم، ومنها قول جرداق في مطلع قصيدته:

لا نيله يطغو ولا هو يزخر   بلد يهون به الإمام الأكبر

وتعد قصيدة الجواهري في مديح طه حسين جوهرة من عيون الشعر الحديث في المديح، والتي يقول فيها:

أحييك طه لا أطيل بك السجعـــا

كفى السجع فخرا محض اسمك إذ تدعى

أحييك فذا فـــى دمشق وقبلهـــا

ببغداد قـــــد حييت أفذاذكم جمعـــــــا

نـهضت بنا جيــلا وأبقيت بعدنـــا

لأبنائنا ما يحملــون بـــــه المسعـــــى

أبا الفكر تستوحى من العقل فذه

فذا الأدب المحض استثرت بـــه الطبعا

ويا سحر موسى إن فى كل بقعة

لما تجتلى مـن آية حيــة تسعـــــــــى

لقد كانت معارك طه حسين وستظل نموذجا يحتذى به فيما ينبغي أن يكونه المفكر والمثقف وصاحب القلم والعلم، والأستاذ المعلم المسؤول عن تنشئة الأجيال، وكانت وستظل مثارا للقضايا والنقاشات التي لم يتم التوصل فيها إلى حلول جذرية، وإنما تحتاج إلى المزيد من البحث والدراسة للوقوف على ظلالها وأثرها على حياتنا المعاصرة، لعلها تعطينا بداية الخيط الذي ما زلنا نبحث عنه.

قراءة ثقافية في

"لغو الصيف، وجد الشتاء"

يتبنى طه حسين في هذا الكتاب نهجا يبدو مختلفا بعض الشيء عن طرائقه في الكتابة والتأليف كما تتبدى هذه الطرائق عبر مؤلفاته ودراساته، والتي يمكن تقسيمها إلى:

أ. كتب ومؤلفات، اتسم أسلوبه فيها بالخطاب المباشر المتوجه إلى القارئ / المتلقي بوصفه حاضرا ومشاركا ومحاورا، والذي درج طه حسين على مناقشته ومساءلته ومحاولة استنهاض عقليته وإعادة صقل ذوقه، والأمثلة على ذلك كثيرة، منها كتابه "في الشعر الجاهلي" عام 1926م، الذي اتبع فيه منهج الشك الديكارتي.

ب. أعمال إبداعية سردية، تنوعت بين الرواية والقصة والسيرة الذاتية والمسرحية، ومنها: سيرة الأيام، وروايات: دعاء الكروان، وشجرة البؤس، والمعذبون في

الأرض، ومسرحية أديب.

ج. أعمال مترجمة، ومنها: أوديب، وأنتيجون لسوفوكليس، وأندروماك لراسين، ومن الأساطير اليونانية لأندريه جيد، وزاريج لفولتير.

د. دراسات وأبحاث ومقالات عن الآداب الأجنبية والعربية، والظواهر الثقافية والاجتماعية التي كانت سائدة في عصره.

غير أن كتابه "لغو الصيف وجد الشتاء" يأتي مختلفا عن منهجية طه حسين في الكتب والأبحاث والدراسات السابقة، لأنه يجمع بين سماتها جميعا السردية منها وغير السردية.

- **الملامح السردية في لغو الصيف وجد الشتاء:**

أول ما يلفت الانتباه في هذه المقالات هو البنية السردية منذ البداية وحتى النهاية، مما يمنح النص قدرات متعددة تتفاعل مع التلقي من خلال التأويلات العديدة التي يمكن أن يحتملها النص، ويمارسها المتلقي / القارئ عبر قراءته، فهذه البنية السردية لا هي سرد خالص بمفهوم الرواية كما كتبها

طه حسين في دعاء الكروان مثلا، ولا هي كتابه مقالية على منهجيته، ولكنها تقف على الحد الفاصل بينهما وتمد بطرف في كليهما، مما يجعل من مقالات الكتاب بوابة للعبور إلى الدراسات البينية التي ظهرت بعد طه حسين بعشرات السنين، فالكتاب سرد يعتمد الحوار بين شخصيتين فقط: الراوي السارد المؤلف ذاته، والآنسة التي لم يكشف عن اسمها، وينتقل المكان من الجلوس على شاطئ النيل إلى زيارتها في منزلها في مدينة نيس بفرنسا، ثم إقامته في باريس، ثم عودته إلى القاهرة.

وتمتد المساحة الزمنية لتشمل صيفا كاملا وشتاء كاملا، وإن كانت لا تشير صراحة عبر سرديتها إلى الزمن الخارجي، ولكنها تتضمن إشارات إلى أحداث كبرى في تاريخ الثقافة المصرية، يمكن من خلالها استكشاف ملامح هذا الزمان، ومنها الإشارة إلى قرب افتتاح مجمع اللغة العربية في مصر (المجمع الملكي) في عهد الملك فاروق، وصدور رواية توفيق الحكيم "عودة الروح" وغيرها من الإشارات الدالة.

أما عن الشخصيات التي ينبني حولها السرد، فهما شخصيتان فقط لا يوجد ما يرسم ملامحهما بالمفهوم الكلاسيكي للشخصية في السرد، وإن كشف السرد عن كونهما ينتميان للوسط الثقافي وهو المحور الأساسي الذي يدور حوله العمل من بدايته حتى نهايته، فالمقالات من الأول إلى الرابع تدور حول أحداث يصنعها السارد والآنسة، والمقالة الخامسة استكمال لمسيرة السرد يظهر فيه صوت السارد وحده ليستكمل مسيرة الحكي – إن جاز التعبير – معتمدا تقنية سردية هي الرسالة التي تبدأ بها المقالة إلى صديقته يعبر لها فيها عن مكنون نفسه، ويأمل في أن يلقاها، ويتدخل مع هاتين الشخصيتين شخصيات أخرى فرعية لا تتدخل في الحوار الدائر بين الشخصيتين الرئيسيتين وإنما تحضر بجسدها لتكون مثارا للتعليق عليها من قبلهما، مثل شخصية بائع الورد على شاطئ النيل، وشخصية الخادمة العجوز في منزل الآنسة، وغيرها من الشخصيات التي لا يكون لها حضور بمقولها وإن كان لها حضور دال على

شرائح المجتمع المصري يستدعي وجودها التعليق عليها واحتلال مساحة من السرد لها.

أما على مستوى البناء السردي لحركة العمل فإنه يحمل سمات السرد المعتمد على الحكي في المقام الأول، ويأخذ من المسرحية طابع الحوار الذي يغلب على إجمال النص، وتثبيت المشهد في كل مقالة، فالمقالة الأولى يجري الحوار فيها على شاطئ النيل من البداية حتى النهاية، والمقالة الثانية يدور الحوار فيها في حديقة منزل صديقته، والمقالة الثالثة تدور أحداثها في منزل الصديقة بمدينة نيس الفرنسية، وهكذا تبدو المقالات على مستوى المكان كما لو كانت فصلا من فصول مسرحية يجري الحوار في إطار مشهديته الواحدة.

وتبدو الأحداث في مسارها هادئة نوعا ما، إذ ينبني الصراع على النقاش الدائر بين شخصيتي العمل، فيما يمكن تسميته بالصراع الداخلي الذي يكشف عنه المقول السردي الحواري، اللهم إلا في المقالتين الأخيرتين اللتان يهيمن عليهما الصراع الداخلي المحض متمثلا في وصف ما يدور

داخل نفس الكاتب/ السارد (طه حسين) في اشتباكه مع قضايا معاصرة، وإن كان الخيط الشفيف متمثلا في العنوان (اللغو والجد) هو الرابط بين المقالات جميعا فيما يبرر مسار السرد واستكمال الحكي.

أما المقالة الخامسة فتبدأ بحركة سردية معتمدة على الرسالة التي يسطرها في شكل قطعة أدبية رفيعة المستوى إلى صاحبته، وتنتهي الرسالة بتصوير حالة القلق التي تعيشها هي في غرفتها من الفندق، وإذا بطرق على الباب ومقدم صاحبها، فتستقبله قائلة:

- إن كنت أقبلت للوم والعتاب فعد أدراجك وارجع من حيث أتيت، وخذ قطار الظهر. فإن في كتابك من اللوم والعتب والفلسفة والتشاؤم ما يغني عن إضاعة الوقت.

هنا يتحول السرد ليكون خالصا، كما لو كان رواية عاطفية لقصة حب نشأت على مهل بين رجل وامرأة، فسعيا إلى أن يتساقيا معا أسمى معاني الجمال مع الطبيعة الغناء والحوار الهادئ الناعم الواعي.

غير أن السرد ينحرف عن مساره لينفلت من تصوير هذه الأرواح المرفرفة (لغو الصيف) إلى النقاش في الأدب والأدباء وشؤون الثقافة وهمومها (جد الشتاء).

على هذا النحو ينبني السرد بتقنياته ولغته ومسارات أحداثه متخللا البناء العام للمقالات، بما يجعلها تقترب على نحو كبير من حدود الرواية.

- **الملامح غير السردية في لغو الصيف وجد الشتاء:**

ومن جهة ثانية وفي الآن نفسه، فإن المقالات تحمل ملامح الكتابة المقالية غير السردية التي تصل أحيانا إلى حد تجاوز مجرد طرح الآراء إلى ما يشبه الدراسة البحثية ونتائجها العلمية، وذلك عندما يتعلق الأمر بمناقشة قضية من قضايا المجتمع المصري الداخلي أو الخارجي في علاقته بالغرب آنذاك، ويزداد هذا الأمر تأكيدا إذا ما أخذنا في الاعتبار طبيعة المباشرة التي يتم مناقشة هذه القضايا بها، مما يتنافى مع السردية المحضة التي تتداولها الأعمال الإبداعية في علاقتها بمناقشة قضية واقعية على نحو ما، وهو

ما يتجلى عبر مناطق كثيرة في كل المقالات عندما يتعلق الأمر بتقرير واقع نقدي حول حافظ وشوقي أو كورتلين وتوفيق الحكيم، أو في مناقشة قضية ما ينشر عن الثقافة العربية في صحف الغرب، ويتضح على نحو مكتمل في المقالتين السادسة والسابعة، حيث ينتقل في السادسة إلى تحليل أوضاع المجتمع المصري ومقارنته بالمجتمعات الغربية، وينتقل في المقالة السابعة إلى تهنئة الزيات باستمراره في الكفاح لإصدار مجلة الرسالة رابطا بين الجانب العملي متمثلا في المجلة والجانب الإنساني الشخصي متمثلا في ابنه رجاء، ثم يعرج إلى مناقشة قضايا ثقافية تتعلق بتحليل ورصد وانتقاد المجتمع المصري في وعيه الثقافي وبخاصة مع إقباله على دار السينيما التي تقدم الإسفاف – على حد قوله – وإعراضه عن دار الأوبرا التي لا تستيقظ إلا ثلاثة شهور في العام عندما يقبل الأجانب لقضاء عطلتهم الصيفية، ويرجع ذلك لارتياح المصريين للنوم في حين يحسد الغرب في أنه لا ينام في الصيف ولا في الشتاء.

قضايا ثقافية يطرحها الكتاب:

تتناول المقالات السبع عددا من القضايا التي يثيرها طه حسين مع الآنسة التي يحاورها، ويحلل معها الوضع الثقافي لمصر في هذه المرحلة (بدايات الثلاثينات من القرن العشرين)، ومنها:

- قضية الصراع بين القديم والجديد.
- قضية أزمة النقد.
- قضايا الحرية والمجتمع.
- قضية الإعلام والنشر.
- قضية المبعوثين الدوليين.
- مناقشة الحالة الأدبية في مصر وعلاقة السياسة بالأدب.
- قضية الفصحى والعامية وصراع الأنواع الأدبية الجديدة.
- قضية الأدب التمثيلي.
- نقد الوضع الاجتماعي والثقافي لمصر.

أولا – قضية الصراع بين القديم والجديد:

كان طه حسين في هذه الآونة التي كتب فيها مقالات "لغو الصيف وجد الشتاء" قد مر بمراحل طويلة من الصراع والمعارك الأدبية بدأت مع كتابه "تجديد ذكرى أبي العلاء" واستمرت مع كتاب "في الشعر الجاهلي" عام 1926م، وهجوم الرافعي الشديد عليه، إضافة إلى معاركه السياسية التي أثير بعضها داخل البرلمان المصري، وكانت أشدها عندما رفض وهو عميدا للآداب منح دكتوراه الدولة الفخرية لإسماعيل صدقي باشا، ومعركته المستمرة مع الجهل والجمود الفكري والدعوة إلى التنوير، مما جعل كتاباته موجات متتالية مثيرة للجدل في عصره والعصور اللاحقة عليه.

وبعد هذه المعارك الطويلة التي زادته صلابة على صلابته، ووصلت به إلى مرحلة من التأمل الفكري العميق مكنته من تقديم رؤية تحليلية لكل ما يخص الشأن الثقافي من حوله، كانت هذه المقالات بعنوان "لغو الصيف وجد الشتاء".

منذ الصفحات الأولى للمقالة الأولى (لغو الصيف1) يناقش طه حسين مع صديقته "الآنسة" قضية الصراع بين القديم والجديد، بعدما يعرض السارد لجمال مصر وهدوئها وأبهة الحياة فيها من خلال وصف مشهد جلوسهما على شاطئ النيل، ويقدم وصفا داخليا (نفسيا وثقافيا) للشخصيتين "الراوي / السارد" و"الآنسة"، ويتطور الحوار بينهما، فتقول له:

فإن هدوء هذا المكان وجماله قد أنسياني حدّة ما كنّا فيه من حوار، واضطراب ما كنّا نتبادل من رأي، فلننظر القضية من أولها، فلعل هذا الهواء الطلق وهذا المنظر الحلو، وهذا السكون الساكن، أن تكون قد ردتك إلى شيء من الصواب وصدتك عما كنت فيه من جموح. فما أرى إلاّ أنّك تظلم الأدب والأدباء جميعا، وتقسط على الشبّان والشيب. وكم أحبّ لك أن تكون سمح النفس، رضيّ الطبع، مستعداً لشيء من التجاوز، تعذر طيش الشباب، وترفق بحدة الشيوخ.

قال:

فأحب أن أعلم أين الشباب وأين الشيب، ومتى يكون الأديب شابّا، ومتى يكون الأديب شيخا.

ويحلل هو هذا الرأي ويستنكر هذه الخصومة، لأنه يراها في غير موضعها، وإنما الأولى أن يكون الاختصام في الرأي والفن، وأن يكون محتكما إلى آداب، ويضرب على ذلك مثل إعجاب جيله وتتلمذه على يد حفني ناصف، وتقديم واجب الاحترام دون أن يمتنع عليهم إنكارهم بعض آرائه، والعودة إليه في نهاية كل أسبوع للاستزادة من علمه، دون أن يكون الاختلاف مبنيا على حداثة سنهم أو شيخوخة حفني ناصف.

وتدعوه الآنسة لعدم الضيق بتمرد الشباب، فيدعوها للاتفاق على معنى الشيخوخة في الأدب، والتي يرى أنها الضعف والعجز والفتور، وما دام الكاتب قادرا على الكتابة كل يوم فهو لم يصل لمرحلة الشيخوخة بعد.

إذن يمكن القول إن طه حسين كان يدعو إلى تجاور الأشكال لا تصارعها – بمفهومنا الحداثي- فالآداب والفنون عبر مسيرتها الزمنية لا ينبغي لأصحابها أن يتصارعون مع

سابقيهم لمجرد أنهم جيل سابق، وإنما يتصارعون مع منجز الفكر الذي تم تكريسه عبر الزمان في الفن أو الأدب، بمعنى انتقاد الأفكار المتوارثة والاختلاف معها، ولكن مع الاحتفاظ بآداب العلم والعلماء.

هذه النظرة التي تبدو في ظاهرها أخلاقية، إلا أنها في العمق تحمل منهجا علميا في طريقة تداولها للأشياء، فكم من العلماء أفنى عمره في الهجوم على الحديث وإذكاء روح الصراع ضده، أو ضد من هو أحدث منه لمجرد أنه أحدث، ولو أنه أفنى هذا العمر في سبيل انتقاد الأفكار وليس الهجوم على أصحابها لكان المنجز الثقافي العربي قد تغيرت ملامحه كثيرا، وهو ما يعبر عنه طه حسين في بعض مؤلفاته، يقول:

"ليختصم أنصار الجديد وأنصار القديم، ما وسعتهم الخصومة وما وجدوا من أنفسهم قوة على احتمال أثقالها، والمضي فيما تحتاج إليه من الجهاد. فان الزمن يمضي في سبيله رغم خصامهم وصلحهم. وهو لا يمضي وحده ولكنه يدفع أمامه قوما منا، ويجر وراءه قوما آخرين. وهو منته

بأولئك وهؤلاء إلى حيث يريد هو من التغير والتطور والتجديد، لا إلى حيث يريدون هم من الوقوف والجمود والإسراف في المحافظة على القديم كل القديم." (٥)

ثانيا ـقضية أزمة النقد

ثاني القضايا التي تحتل مساحتها من المناقشة في المقالة الأولى (لغو الصيف1) هي قضية أزمة النقد، التي ترصد العلاقة بين الأدب والنقد، وما بدأ في الانتشار آنذاك من ضيق الأدباء بالنقد، وإقبالهم على المادحين المقرظين، وإعراضهم عن النقاد المحللين لنصهم الأدبي ورصد ما له وما عليه، ذلك أن الأدباء لا يرغبون إلا في سماع ما يرضيهم فقط، والثناء عليهم فيما كتبوه، ويرى طه حسين أن "النقد مهما يشتد ومهما يسرف صاحبه فهو أنفع وأجدى"

بدأت هذه الأزمة على عصر طه حسين واستفحلت على مر السنين، فوصلت إلى أن النقد يساوي المجاملة الآن على نحو ما تشهده الندوات والصالونات وجلسات المؤتمرات

والأبحاث المنشورة في الدوريات الأدبية والصحف والمجلات، وغدا هذا الترويج الإعلامي مدخلا لقراءة مبدع والإعراض عمن لم يشملهم هذا النقد الإعلامي المجامل.

ثالثا ـ قضايا الحرية والمجتمع:

وعبر مناقشة هذه القضايا الكبرى التي تمثل بداية لأزمات حقيقية كانت تواجه الثقافة العربية آنذاك، واستمرت على نحو أوسع حتى وقتنا الراهن، عبرها تأتي الإشارة إلى قضايا فرعية من خلال إشارات قد تبدو مقتضبة لكنها تحيل إلى الواقع الثقافي والاجتماعي في عصره، ومنها:

قضية الحرية وقمع المجتمعات، ففي بداية "لغو الصيف 2" عندما كان طه حسين يصف الطريق الضيقة الملتوية بين الأشجار، يقول: " وقد استمتعت الأشجار القائمة على جانبيه بشيء من الحرية عظيم لا يستمتع به الناس في هذه الأيام ".

فهل كان طه حسين يرى أن الحرية في العصور التي عاشها سابقا أفضل مما هي عليه في عصره؟ أم أنه كان يرى

أن الحرية التي عايشها في بلاد الغرب أفضل مما هي عليه في بلاده؟

قضية التناقض الذي وقع فيه المجتمع نتيجة للصراع الحضاري، وعدم استيعابه لمفاهيم الحرية المستوردة، وتشوه موروثه الفطري والطبيعي وعدم قدرته الحفاظ عليه كما كان مصريا أصيلا معبرا عن هويته، يقول عندما يرى أغصان الأشجار منطلقة في الفضاء دون تشذيب أثناء عبوره الممر من بوابة منزل صديقته "الآنسة " وصولا إلى حديقة منزلها:

"وقد كانت نفسه مفتونة بهذه الطبيعة الحرة المطلقة، وبما بينها وبين حياة الناس في هذه الأيام من تناقض واختلاف "

رابعا – قضية الإعلام والنشر:

تدعوه صديقته "الآنسة " للجلوس معها في حديقة منزلها بين الورود والأشجار والأغصان، ويدور الحديث بينهما، فينتقدا نشر حديثهما السابق على شاطئ النيل حول شيوخ الأدب وشبابه، في مجلة الرسالة، ويعجبا كيف أمكن نقله

عنهما كاملا على الرغم من عدم وجود أحد بالقرب منهما، وينتهي بهما الرأي إلى أن مصر مفشية للسر قليلة الحرص على الكتمان على اختلاف بيئاتها.

غير أن العجيب في الأمر هو تحليل طه حسين لأسباب تلك الظاهرة، عندما يقول على لسان صديقته "الآنسة":

من الظواهر التي لا تحتاج ملاحظتها إلى دقة ولا إلى ذكاء أن مصر مفشية للسر، قليلة الحرص على الكتمان. انظر إلى بيئاتها المختلفة، فلن ترى لها سراً. أحاديث ساستها وقادتها وأدبائها وأصحاب الأعمال فيها ذائعة شائعة يعرفها الناس جميعاً ويتناقلها الناس جميعاً. ومصدر هذا في أكبر الظن أن طبيعة مصر نفسها صافية واضحة، مسرفة في الصفاء والوضوح، سماؤها صحو دائماً، لا يتكاثف فيها الغمام، ولايتراكم فيها السحاب، وأرضها مبسوطة هينة لا ترتفع فيها الجبال الشاهقة، ولا تنتثر فيها الكهوف والأغوار، ولا تنبت فيها الغابات الكثيفة الملتفّة، فأمرها كله ظاهر،

وحديثها كله شائع، وشمسها المشرقة دائماً لا تؤتمن على سر مصون.

فهل يكون ذلك مبررا لعدم الحفاظ على الأسرار؟ أم أنها من سمات المجتمعات التي تعاني من انتشار الجهل وتدني مستويات الوعي حين تهتم بشؤون الآخرين أكثر من اهتمامها بشؤون نفسها، وأكثر من اهتمامها بالنظر إلى القضايا الفكرية والحقيقية التي يجب على أفراد المجتمع التصدي لها وعلاج مشكلاتها؟.

ثم ينتقل الحديث إلى مناقشة طبيعة الحوار الثقافي في عصره بين الجد واللهو، ورغبة الناس في الاستماع إلى اللهو دون الجد، ومناقشة قضية دور الأديب أو الكاتب مع المجتمع، فهل عليه أن يقرأ ليقدم للناس ما ينفعهم؟ أم أنه يقرأ ليقدم لهم لهو الحديث الذي يسري عنهم؟ بمعنى هل يكتب لغيره أم يكتب لذاته هو؟

ترى الآنسة أن الأدباء يكتبون ليعينون الناس على تحمل الحياة والاستمرار فيها، ومن ثم فعموم المجتمع لا يريد منهم

أكثر من ذلك، ويرى الأستاذ أن دور الأديب هو تثقيف المجتمع وتنمية وعيه بما يجعله كائنا منتجا مستفيدا مما قرأ مطبقا على واقع حياته.

خامسا ـ قضية المبعوثين الدوليين:

في المقالة الثالثة يفاجئ الأستاذ صديقته الآنسة باللحاق بها في مدينة نيس الفرنسية وزيارتها في منزلها دون علم مسبق منها، ويزداد عجبها لأنها تركته منذ عشرة أيام فقط في القاهرة عائدة إلى نيس لاستكمال دراستها، وتعلم منه أنه ذاهب إلى باريس لمهمة رسمية حكومية تتعلق بدراسة شأن من شئون ومتطلبات الدولة في مصر، وهنا يكون المجال مهيئا لمناقشة وانتقاد سلوك المبتعثين على النحو الذي تجمله الآنسة عندما تقول:

لأمر من أمور الدولة فستدرس شأنا من شؤون التعليم أو فنا من فنون النظام أو لونا من ألوان الإدارة أو شيئا من هذه الأشياء التي يرحل الموظفون لدرسها في أوروبا أثناء الصيف، فيسرحون ويمرحون ويلهون ويلعبون ويكتبون في

آخر الصيف تقريرا يرفعونه إلى الرئيس أو إلى الوزير، فيتلقى الوزير أو الرئيس هذا التقرير ويتلقى صاحبه كلمة شكر وثناء وقد فهم الرئيس عن صاحب التقرير وفهم صاحب التقرير عن الرئيس ما يريد كل منهما أن يفهم عن صاحبه.

وهي قضية يتم عرضها في سياق الحكي من منظور النقد الفكري لعلاقة المثقف بالسلطة وسوء استخدام هذه العلاقة لصالحه والتخلي عن الواجبات الوطنية المنوط بها.

سادسا – الحالة الأدبية في مصر وعلاقة السياسة بالأدب:

عندما يلحق الأستاذ بصديقته "الآنسة " في مدينة نيس، تسأله عن أحوال المصريين، وعن الأدباء والمثقفين منهم على وجه الخصوص، فيجيبها الأستاذ معبرا عن رأيه في انتقاد الغوغاء التي كان يرى أن عصره يتسم بها، مما يستدعي معه النقيض فيما يتعلق بدور الأدب والأدباء في التقدم بمجتمعاتهم وتنمية وعية أفراده، يقول:

فقد تركت الأدباء في شغل شاغل وهم مقيم، يقولون فيطيلون، ويعملون فلا يبلون، وكأنهم هذا القطار الذي يهم

بالحركة فيكثر فيه الضجيج والعجيج والقعقعة والاضطراب، وهو ثابت في مكانه لا يريم، لأن الله لم يأذن له بالحركة بعد، أو لأن أداة من أيسر أدواته لم يتح لها أن تشترك في العمل مع أخواتها.

ثم يصور لها حال الأدباء بعد وفاتهم من خلال حال المثقفين مع شاعر النيل حافظ إبراهيم، الذي كان قد مر عام على وفاته - آنذاك -، ولم يفعل له أحد شيئا، ولم تقل فيه القصائد الطوال، ولم تمتلئ دار الأوبرا احتفالا بذكرى وفاته كما حدث مع شوقي، وكلاهما عظيم كما يرى طه حسين، ولكن السياسة اختارت شوقي لتبرز عظمته، وأعرضت عن حافظ، فأي جناية تلك التي تجنيها السياسة ووسائل الإعلام على الأدب؟

إن هذه القضية التي كان طه حسين يشير إليها من خلال وضعية حافظ إبراهيم وشوقي، استفحل خطرها في العقود اللاحقة عليه، ووصلت بنا الحال الآن في أن يتحكم الإعلام، وتتحكم أدوات السياسة في الترويج لأدباء متواضعي القيمة

والإعراض عن أدباء لهم ما لهم من قيمة تتجلى عبر أعمالهم الأدبية والإبداعية، وإلى الأخير ينتمي كثير، منهم أستاذ النقد الأدبي فخري أبو السعود (الذي لا تعرفه أجيال بأكملها) والقاص محمد حافظ رجب (الذي يعد من رواد التجريب في القصة القصيرة) وإن كان هؤلاء لهم ذكر بين النخبة وقلة يعرفون قدرهم، فإن هناك الكثير من المبدعين رغم جودة أعمالهم فليس لهم ذكر على الإطلاق، ذلك أن القرب من السلطة والبعد عنها هو المتحكم في شهرة ونسيان الأديب، وتلك إحدى سمات الفساد في عصورنا.

وتختتم الآنسة الحوار ملخصة طبيعة المأساة وملقية بالمسؤولية ليس على الأدباء وحدهم، وإنما على الدولة بأكملها، تقول:

ولكن بؤس حافظ مهما يكن مجيدا بالقياس إليه فهو عار على مصر، ومن حق مصر لنفسها أن تكشف هذا العار.

قضية أخرى تتعلق بالسياسة يستدعيها الحوار، وهي مناقشة شأن الأدباء والمثقفين المصريين في فرنسا، حين

يخرج لها صحيفة "النوفيل ليترير" التي تتضمن صفحة أدبية كاملة عن مصر، بأقلام غربية، وكأي صفحة يكتبها الآخر فإنها تحمل وجهات نظره التي قد تخضع لمتطلبات السياسة في بلده أحيانا، وقد تخضع لقصور الرؤية أحيانا أخرى، لكنها في نهاية الأمر تعبر عن مكانة مصر في هذه الآونة لتنشغل بها صحف فرنسا وتستكتب عنها الأقلام الغربية والعربية، وبخاصة أنطون الجميل الذي كتب في هذه الصفحة عن " المجمع اللغوي الملكي" مما أثار عجب الآنسة، فعبرت عنه قائلة:

الغرابة أن يعلن عن هذا المجمع في فرنسا ولما يوجد في مصر بعد.

لكن صديقها يرى أن الإشكالية ليست في الكتابة عن وجود المجمع بالقوة قبل أن يكون وجودا بالفعل، وإنما في آراء أنطون الجميل التي اختلط فيها فهمه للمجامع اللغوية، يقول:

ليس على صديقنا بأس من أن يكتب عن مجمع إن لم يوجد بالفعل فهو موجود بالقوة، ولا سيما إذا طلبت إليه الكتابة وأثقل عليه في الطلب، وليس إسراعه الى الكتابة في شيء

هو إلى الوهم أقرب منه إلى الخيال فضلا عن الحقيقة الواقعة هو الذي أنكره عليه أو ألومه فيه، إنما أنكر عليه فهمه للمجامع اللغوية وتصويره لتاريخها عند العرب، أترين الى أسواق الجاهليين؟ لقد كانت مجامع لغوية عند الأستاذ أنطون الجميل، ثم أترين إلى مدارس اللغة والنحو والأدب في البصرة والكوفة وبغداد وفى حلب ودمشق والقاهرة وقرطبة؟ لم تكن من المجامع اللغوية في شيء عند الأستاذ أنطون الجميل. هذا كثير ألا ترين ذلك؟

إن طه حسين يرى أن المجامع اللغوية فكرة قديمة بدأت مع مدارس اللغة والنحو، وانتشرت على مدى حواضر الوطن العربي في عصور نهضته بدءا من القرن الثاني الهجري وأن الأزمة عند أنطون الجميل أنه استجاب لمتطلبات السياسة على حساب الضمير العلمي والوعي النقدي.

سابعا – قضية الفصحى والعامية:

تسافر الآنسة صديقها في مدينة "نيس" قاصدة مدينتها الجامعية لاستكمال دراستها بعد قضاء أسبوع كامل معه لا

يفترقان إلا في الليل، وترفض مصاحبته لها للوداع حتى ولو إلى محطة القطار، ويمضي السرد واصفا استغراقها في القراءة أثناء السفر، لكنها تفاجؤ بوجود صديقها معها في القطار، ويحسن السرد وصف المشهد أدبيا وتقديم ملامحه الخارجية والداخلية عليهما كما لو كانا حبيبين تتنامى بينهما المشاعر، غير أن السرد يعود إلى مجراه في مناقشة القضايا الثقافية مرة أخرى، فيدور الحوار حول الكتاب الذي كانت مستغرقة في قراءته، وهو كتاب كورتلين "قطار الساعة الثامنة والدقيقة السابعة والأربعين"، وهو من كلاسيكيات الأدب الفرنسي الذي شغف به كثير من الكتاب منهم أناتول فرانس، والكتاب كان مخالفا للسائد اللغوي وقواعد البلاغة في عصره، إذ جعل أبطاله ينطقون بعاميتهم البسيطة دون تكلف أو إنطاقهم بفصحى هي أبعد ما تكون عن وعيهم، يقول طه حسين معلقا على ذلك:

وما رأيك لو أن كورتلين أنطق أبطاله بهذه اللغة الفرنسية الفصحى، وأجرى على ألسنتهم هذه الجمل الأدبية الرائعة

التي تجدها في كتب كورتلين نفسه وفي كتب غيره من الأدباء؟. إذا لما وجدت في الكتاب لذة كهذه اللذة التي أجدها الآن، ولعلي أن أعجز عن المضي في قراءته إلى آخره فضلا عن أن أقرأه مرات. إن للغة الفصحى خطرها وقيمتها، وهي مقياس البيان وظرف الأدب، ولكنها قد تسخف، وتسمج إذا جرى بها لسان هذا الجندي الذي اتخذه كورتلين بطلا لقصته.

وتوافقه صديقته الرأي في بلاغة العامية وقدرتها على توصيل منطوق أصحابها بدلالات لا تملكها أساليب بيان الفصحى، تقول:

وكل كلام الجندي وكلام رفاقه ظريف محبب إلى النفوس لأن ما فيه من اللحن والتواء الأسلوب يصور روح الشعب كما هي صريحة مستقيمة لا غموض فيها ولا التواء.

وينتهيان إلى أنهما شخصيا لا يمتلكان الجرأة على استخدام العامية، غير أنهما لا يقبلان بها ولا يرفضانها، ولا ينكران عليها جمالها، وهو ما يجعلهما ينتقلان من الحديث

عن كورتلين إلى الحديث عن توفيق الحكيم، وقد كان شابا في بداياته الأولى، غير أن طه حسين يرى بينه وبين كورتلين رباطا يأمل – وقتها – أن يكون التفوق والنبوغ.

وهنا ينتقل الحوار إلى الحديث عن قصة "أهل الكهف" لتوفيق الحكيم، ويقدمها طه حسين إلى صديقته على النحو التالي:

ولست أريد أن أطيل في تقريظ هذه القصة. وإنما أقول أني قرأت في هذا العام قصصا تمثيلية كثيرة ظهر بعضها بالفرنسية، وبعضها بالإنجليزية، وبعضها بغير هاتين اللغتين. وترجم أليهما أو إلى إحداهما، فكانت قصة أهل الكهف هذه خير ما قرأت من هذه القصص كلها وأحسنها موقعا من نفسي، وأشدها إثارة لإعجابي. ولست أدري أمعجب أنا بموضوعها أم بأسلوبها السهل، أم بألفاظها الساذجة أم بتحليلها الدقيق أم بهذا كله، ولست أشك في أن إعجابي بها سيضاعف منذ اليوم لأنك أحد أشخاصها. ومن يدري لعلك برسكا التي صورها توفيق الحكيم!

ثم يعرض طه حسين قصة أخرى لتوفيق الحكيم بعد أهل الكهف، وهي "عودة الروح" التي أثارت حولها انتقاد الشيوخ وإعجاب الشباب، وهنا يظهر الصراع مرة أخرى بين القديم والجديد على نحو ما بدأت به المقالة الأولى.

لقد أنكر علماء البيان على "عودة الروح" لغتها، على الرغم من أن الحكيم جعل أبطالها الشعبيين ينطقون بلغتهم العامية على نحو بياني تعجز الفصحى عنه كما يرى طه حسين، وعلى الرغم من رأي "الآنسة" ترى أنه كان من الأولى لهؤلاء العلماء أن ينظروا إلى القصة ذاتها، ولا يرفضوها لمجرد أن ألفاظها رديئة من وجهة نظرهم.

ومن توفيق الحكيم إلى الكتاب الفرنسيين مرة أخرى، حيث يستدعي السرد على نحو درامي هادئ، الحديث عن كتاب سيلين "سياحة في آخر الليل " واختلاف النقاد حول اللغة التي كتب بها الكتاب، لانحيازها إلى العامية، وإن كان طه حسين يعبر عن رأيه الخاص في كتاب سيلين قائلا:

وأنا معجب بكتابه إعجابا شديداً، مبغض للغته بغضا شديداً لأنه يتعمدها تعمداً ولا تدفعه إليها الحاجة ولا الضرورة ولا الرغبة في التصوير الصادق والتعبير الصحيح

إذا لا ينكر طه حسين ولا صاحبته استخدام العامية في الحوار، غير أنهما ينكران استخدامها في غير موضعها مما قد يصل إلى حد الإسراف، لمجرد الرغبة في التجديد كما في مثال سيلين.

ثامنا – قضية الأدب التمثيلي:

كان تمثيل الأدب في مصر على عهد طه حسين لم يزل فنا وليدا يعتمد في أغلبه على الوارد الغربي، وكان رأي صاحبته أنه فن ينفذ إلى العين والأذن لا من طريق العين وحدها كما ينفذ الأدب المكتوب، وينفذ إلى النفس ممترجا بأصوات المتحاورين وحركات اللاعبين، وينتقد طه حسين وضع هذا الفن في مصر وتأخره عنها إلا لماما، يقول:

أأجهل هذا الفن من فنون الأدب جهلا، وأهمله إهمالا، وأنسى أنه موجود وأن فيه للنفوس الراقية متاعا، وللعقول الراقية غذاء، وللقلوب الراقية لذة.

غير أن هذا يفتح الباب أمام الآنسة وصديقها لمناقشة قضية الأدب بين القراءة والتمثيل، وإن كان طه حسين يعجبه التمثيل لما يقدمه من متعة إلا أنه يرى أن متعة القراءة يمكن أن تثير اللذة والإعجاب أيضا، فالأشكال الفنية تتجاور ولا يلغي بعضها بعضا، أو هكذا ينبغي أن تكون، يقول:

ولست أخفي عليك إني أكره أن أرى قصة تمثيلية قبل أن اقرأها، ولعلى أقرأ القصة التمثيلية فأعجب بها إعجابا، وأفتن بها فتونا. ثم أشهدها في الملعب فيدركني شيء كثير من خيبة الأمل لأن الممثلين لم يؤدوها كما كنت أريد أن تؤدى، أو كما كنت أنتظر أن تؤدى.

تاسعا ـ نقد الوضع الاجتماعي والثقافي لمصر:

تأتي المقالة السادسة بعنوان "من لغو الصيف إلى جد الشتاء" فتنتقل من السرد القصصي المعتمد الحوار بين الأستاذ وصديقته، إلى السرد الذاتي المتخذ طبيعة التحليل النقدي للمجتمع المصري، فتصف أحواله في الصيف من ميل إلى اللغو استجابة لثقل الحياة ولظاها الداخلي، وأحواله في

الشتاء من افتتان بمظاهر الحياة في القاهرة (في القرن العشرين) التي لو عاشت فيها امرأة سقراط لاتخذت لنفسها يوما من كل أسبوع تستقبل فيه الزائرين والزائرات من أوساط المثقفين، ويعبر طه حسين عن هذه الصالونات قائلا:

تكرههم عليه امرأة سقراط وأمثالها، لأن امرأة سقراط لاتغفر لفلان وفلان من العلماء والأدباء وأصحاب الفن أن يهملوها، أو ينصرفوا عن غرفة استقبالها، وهي تصر أشد الإصرار على أن يظهروا في بيتها مرة في كل اسبوع، حتى لا يقول صديقاتها أن غرفتها ليست حافلة بأعلام الفن وأفذاذ الأدب، ورجال المال والأعمال، فإذا فرغت امرأة سقراط وفرغ زوجها من الاستقبال وما فيه من حديث مختلف مؤتلف، معوج مستقيم، واضح غامض، خصب جدب، خطر بريء، فلم تنته امرأة سقراط ولم ينته سقراط من كل شيء، وإنما ابتدأ شيئاً لا سبيل إلى أن ينتهي، فهؤلاء الزائرون والزائرات لابد أن ترد لهم الزيارات، لأنهم كسقراط وامرأة

سقراط مضطرون إلى أن يستقبلوا كما كانوا مضطرين إلى أن يزوروا.

ويرى طه حسين أن ذلك مضيع للوقت لا يبقى في العقل فكرا يمكن تسجيله كما سجل سقراط أفكاره لأنه لم يكن يحيا في هذه البيئة التي تفشى فيها هذا اللون من الترف المبدد للحياة بلا معنى، إضافة إلى قاعات توقيع الكتب واللوحات وألوان الفنون، ودور السينما والأوبرا، وغيرها مما أصبح لا يزار لضرورة، وإنما يزار لأنه أصبح واجبا اجتماعيا ينساق فيه الفرد لأهواء المجتمع الذي لا يجب ألا يشاهد في مثل هذه الأماكن، وإلا صار متهما بالتخلف عن الركب، وأنه ليس من أهل القاهرة.

هنا يشير طه حسين إلى الآثار السلبية لتحضر العواصم، عندما يصبح التحضر عرفا اجتماعيا وضربا من الأبهة والوجاهة الاجتماعية، وليس غاية في ذاته، أو هدفا لتطوير الحياة على النحو الذي يراد، بل إن الأمر أسوأ من ذلك على النحو الذي يصوره طه حسين ممثلا بسقراط:

وقد تظن أن سقراط حين يذهب إلى الملعب أو إلى دار من دور السينما أو إلى قاعة من قاعات الغناء يستطيع أن يفرغ للفن أو يستمتع به، فاطرد عن نفسك هذا الظن، واذكر أن هناك (الانتراكت) ومقابلات الانتراكت، وأحاديث النظارة والمستمعين عما رأوا وما سمعوا ويا لها من أحاديث تبغض الفن إلى أحب الناس للفن، يجب أن يكون لكل واحد من هؤلاء النظارة والمستمعين رأي يراه، وكلمة يقولها فيما رأى وما سمع، وقد يكون هذا الرأي سخفاً، وقد تكون هذه الكلمة جهلاً، وهما كذلك في أكثر الأوقات، ولكن سقراط مضطر إلى أن يسمعهما ويقرهما، أو يجادل فيهما مجادلة المقر الذي لا ينكر.

وهناك ما هو أثقل من ذلك، فيجب أن يكون لسقراط رأي يقوله وكلمة يقولها وإن لم ير شيئاً، وإن لم يرد أن يقول شيئاً ذلك أنه إذا لم يقل كلمته اتهم بالجهل، أو وصف بالكبرياء، وكلاهما لا يليق بالحيوان الاجتماعي الذي ذكره ارسطاليس في كتاب السياسة، والذي يتألف منه ومن أمثاله سكان مدينة القاهرة، كما يتألف منه ومن أمثاله سكان باريس.

ثم يأتي دور انتقاد المحاضرات والمحاضرين، التي غدت وغدوا وغدا متلقيهم جزءا من هذه الوجاهة الاجتماعية التي تستقيم حياة المثقف القاهري إلا بها، ولا يقبل في زمرة المثقفين إلا بالتزامها، ويالَه من وضع يشغل الوقت، ويصرف الناس حتى عن الحياة – على حد تعبير طه حسين.

ويقارن طه حسين بين هذا الجد، جد أهل القاهرة ومترفيها، وبين جد آخر يحمل المرارة، هو جد الفلاحين، يقول:

كلا ففي الشتاء جد آخر، جد خصب حقاً، جد نافع حقاً، جد نعيش منه، ونلهو به، ولا يجني منه أصحابه إلا حياة كلها خشونة وشظف وحرمان، هو جد هؤلاء الفلاحين الذين يعملون في الأرض، لا يحفلون بالبرد ولا يحفل بهم البرد، وفي الشتاء جد آخر، جد يمزق القلوب، ويعذب النفوس، ويبعث اللوعة والأسى في أفئدة الذين يعرفون الرحمة واللين، ويذكرون حين يلهون إن في الأرض قوماً آخرين يعذبهم

الجوع، ويلح عليهم البرد، فيقضون ليالي خير منها ظلمة القبور، في الشتاء هذا الجو المظلم القاتم، المرهق المحرق الذي تصوره أجمل تصوير وأبلغه تلك الأغنية المشهورة أغنية الإحسان التي ما استطعت أن استقبل الشتاء منذ عرفتها دون أن أسمعها مرة ومرة.

هذا الشتاء يقبل، ومعه حاشيته الحزينة، إن الأشقياء ليألمون كثيراً في الشتاء، إن من الحق علينا أن نحميهم من هذا الشقاء، إن البرد لشديد في دورهم المقفرة!

لغو الصيف وجد الشتاء

لغو الصيف[٦]

(1)

- من هنا يا آنسة؟

- من هنا؟

ثم أشار إلى مائدة منعزلة كأنّما هيئت لقوم يريدون الخلوة واعتزال الناس.

فلما انتهيا إليها أعجبهما مكانها الجميل على شاطئ النيل في ظل هذه الشجرة الضخمة الباسقة، قد مدّت أغصانها في قوة إلى أمام، حتى إذا تجاوزت بها الشاطئ حنتها نحو الماء، وغمستها فيه كأنما تريد أن ترتشف منه.

ونظر الصديقان من حولهما فلم يريا أحدا، ومدّ الصديقان بصرهما أمامهما وأطالا النظر إلى النيل وهو يجري من تحت أقدامهما في قوة الشاب وهدوء الحكيم، ثم جلسا، وقال الرجل لصاحبته:

– هنا يحسن الحديث.

قالت:

– ويحسن الصمت أيضا.

وقد ظهرت على وجه صاحبها علائم تدل على أنّه لم يفهم عنها ما أرادت إليه، وأحسّت هي منه السؤال الذي لم ينطق به، فقالت وكأنها تجيب:

– إن تحدثنا تساقينا موسيقى الحوار، وإن سكتنا تساقينا نجوى الضمائر ووحي القلوب. ولنا في كلتا الحالين لذّة، ولنا في كلتا الحالين متاع، فخذ بأيهما شئت.

قال:

– فأيهما تريدين؟

قالت:

– لا أريد شيئا إلاّ أن نترك أنفسنا على سجيتها. فإن انطلقت ألسنتنا سمعتها آذاننا، وإن آثرت نفوسنا الحديث الصامت وعته قلوبنا.

قال وهو يضحك:

– أيسر من هذا كله وأدنى إلى التناول أن نتساقى ما يبرد الغليل، ويرد عنّا حرّ هذا القيظ.

ثم دقّ يدا بيد في شيء من الرفق. فأقبل الخادم وتلقى عنه أمره وانصرف.

وكان هو طويلا نحيفاً، ظاهر النشاط، خفيف الحركة، مكتمل القوة، لايظهر عليه ما يدل على سنه إلاّ خيوط بيض متفرقة قد انتثرت في شعر رأسه انتثارا. وكان عذب الصوت، حازم اللهجة، معتدل الحديث، ولعله كان إلى الإبطاء فيه واصطناع الأناة أدنى منع إلى الإسراع والتعجل، وكان صوته يمتد من حين إلى حين، لا غضباً ولا تحمساً، ولكنه كان مقتنعا بما يقول، فكانت حدّة صوته ولينه يمثلان حظه من الإيمان والاقتناع بما يقول.

وكانت هي ربعة ممتلئة الجسم مستقيمة القد معتدلة القامة، وكان وجهها مشرقا شديد الإشراق، منسقا بديع التنسيق، تمر به من حين إلى حين سحابة رقيقة جدا من حزن لا يكاد يتبيّنها إلاّ من اعتاد أن يلقاها ويطيل صحبتها والتحدّث إليها.

وكانت هذه السحابة الطارئة لا تمر بها وهي تتحدّث، إلاّ قطعت عليها الحديث فجأة، ثم لا تلبث أن تزول فيتصل الحديث، ولا تمر بها وهي تسمع إلاّ لهت عن محدثها لحظة ثم تزول، وإذا هي ترفع إلى محدّثها طرفا فيه شيء كثير جداً من الحياء والإشفاق، وتستعيده ما قال في صوت عذب، ولفظ حلو، يحسن مسّه للآذان ووقعه في القلوب. وكان صوتها هادئاً عريضاً يمثل نفسا هادئة غنية ممتلئة بالعواطف الخصبة والشعور الحي والعلم الغزير.

وكأن الفرصة أرادت أن ترضي حاجتها إلى الصمت، وحاجة صديقها إلى الكلام، فقد أقاما صامتين للحظة غير قصيرة ينظران إلى سعى النهر أمامهما، كأنهما ينتظران شيئا، وكأنهما يلهوان بالنهر وسعيه الهادئ القوي عمّا يضطرب في نفوسهما من الخواطر والآراء، ومن العواطف والأهواء، حتى إذا أقبل الخادم فهيأ المائدة وصفّ أكوابه وأطباقه، وانصرف راضياً عن نفسه مبتسما لضيفيه، نظرت هي إلى صاحبها كأنها تسأله أن يبدأ الحديث فقال، وقد فهم عنها ما كانت تريد:

– لسنا في حاجة إلى أن نبتدئ الحديث، وما علينا إلاّ أن نأخذه حيث تركناه حين انتهينا إلى هذا المكان الهادئ الجميل.

قالت:

– فإن هدوء هذا المكان وجماله قد أنسياني حدّة ما كنّا فيه من حوار، واضطراب ما كنّا نتبادل من رأي، فلننظر القضية من أولها، فلعل هذا الهواء الطلق وهذا المنظر الحلو، وهذا السكون الساكن، أن تكون قد ردتك إلى شيء من الصواب وصدتك عما كنت فيه من جموح. فما أرى إلاّ أنّك تظلم الأدب والأدباء جميعا، وتقسط على الشبّان والشيب. وكم أحبّ لك أن تكون سمح النفس، رضيّ الطبع، مستعداً لشيء من التجاوز، تعذر طيش الشباب، وترفق بحدة الشيوخ.

قال:

– فأحب أن أعلم أين الشباب وأين الشيب، ومتى يكون الأديب شابّا، ومتى يكون الأديب شيخا.

فهذا حديث طريف لم أسمع به في مصر قبل هذه الأيام،

ولقد رأيت الأدباء منذ عرفت الأدب ينشئون النثر ويقرضون الشعر على اختلاف أسنانهم وتفاوت حظوظهم من القوة والضعف، فلا يختصمون في شباب ولا شيخوخة، وإنّما يختصمون في الرأي ويختصمون في الفن، يعين بعضهم بعضا، ويدافع بعضهم بعضا، لا يعتز الشيخ على الشاب بتجاربه وكثرة ما أنتج من الآثار، ولا يعتز الشاب على الشيح بحداثته وقوته، ونظرة شبابه، واتساع الأيام أمامه، وانبساط الآمال له.

قالت:

– لم تر ذلك من قبل ولكنك قد رأيته الآن. فأيّ غناء في أن تنكر شيئا حدث الآن لأنه لم يحدث من قبل، وأي فرق بينك وبين عامة الناس الذين يضيقون بالجديد، لا لشيء إلاّ لأنهم لم يألفوه ولم يطيلوا عشرته.

– إنّ في الشباب نزوعا إلى الفوز، وطموحا إلى الظفر، وتعجلا لأتساع الشهرة وبُعد الموت، وكل هذا طبيعي، وكل هذا مألوف لأنه يلائم فطرة الشباب وأخلاقهم. ولا

تنكره عليهم. ولا تصرفهم عنه، فإنّي أخشى أن يفت ذلك في أعضادهم. وأن يضعف من نشاطهم، وأن يرد جذوتهم هذه الجميلة إلى الخمود.

قال:

– لقد كنّا شبابا كما كانوا. وكان لنا من رفاقنا في الأدب أساتذة قد سبقونا إلى الحياة وتقدمت بهم علينا السن، وأخذوا من التجارب العلمية والفنية بحظوظ لم نأخذ بمثلها. فما حسدناهم وما أنكرناهم، ولا جاهدناهم ولا قصدنا إلى المكر بهم والكيد لهم، وإنما كنّا نقفوا آثارهم ونسمع لنصائحهم ونستعذب أحاديثهم، ولعلنا كنّا نحس ما بينهم وبيننا من خلاف، فلم يكن ذلك يغرينا بهم، ولا بصرفنا عنهم، وإنك لتذكرين كم كنّا نستعذب أحاديث حفني ناصف، وكم كنّا نحرص على أن نروي عنه كل ما كان يحدثنا به من هزل القول وجدّه. وإنك لتذكرين إنّا كنّا ننصرف عنه بعد الجلسة الطويلة معجبين به محبين له، ثم لا نلبث أن نستعيد ما سمعنا منه فننكر بعضه ونعرف بعضه الآخر، ولا يمنعنا ذلك من أن نتعجّل

عودته إلى القاهرة آخر الأسبوع لنلقاه ونسمع منه ونتحدّث إليه. وما خطر لك ولا خطر لي ولا خطر لواحد من أصحابنا أن ينكر حفني ناصف لأنّه كان شيخا ولأننا كنا من الشبّان، أو يلوم حفني ناصف، لأنه سبقنا إلى الحياة والإنتاج، فسبقنا إلى الشهرة وبعد الصوت، إنّما كنّا نستعينه على أن نكون خيراً منه، وكان يعيننا على ذلك راضيا به مبتسما له راغبا فيه.

قالت:

- فإنّي أحب لكم معشر الشيوخ أن تكونوا كحفني ناصف وأمثاله من أساتذتكم، لا تضيقون بأبنائكم إن ثاروا أو تمرّدوا أو لعبت برؤوسهم نزوات الشباب.

هنا قال صاحبها في شيء من الغضب الضاحك:

- ومن زعم لك إنّي شيخ، هذا شيء لا أقرّه ولا أرضاه.

قالت وهي مغرقة في الضحك:

- وما يعنيني أن تقرّه أو لا تقرّه، وأن ترضاه أو لا ترضاه، فأنت شيخ سواء أردت أم لم ترد.

– ألست قد أنفقت أكثر من ربع قرن تنشئ الرسائل وتنشر الفصول وتذيع الكتب؟ أليس قد اختلف إليك أجيال من الشباب فقرءوا ما كتبت، وسمعوا لما قلت، وتأثروا بهذا وذاك. فمنهم من ذهب مذهبك، ومنهم من ذهب مذهب فلان أو فلان من أصحابك. فكن شيخا أو لا تكن، فأنت أب على كل حال، ماذا أقول؟ بل أنت جد. فلم يختلف إليك جيل واحد وإنما اختلفت لديك أجيال، ولم تتخرج عليك طبقة من الكتّاب، وإنّما تخرجت عليك طبقات. ولست أدري ماذا يغيضك من الشيخوخة. وماذا يسوؤك منها؟ ولم تكره أن يراك الناس كما أنت؟ بل لم تكره أن ترى نفسك كما أنت. ولم تريد أن تطمع في غير مطمع؟ وتطلب ما لا سبيل إليه؟ فليس التصابي من الأشياء التي تحب أو يرغب فيها الرجل المحتشم، وقد عرفتك رجلا محتشما فأجعل نفسك حيث أراد الله أن تكون.

قال في لهجة ماكرة وصوت عابث:

– فأنت شيخة إذن، فقد كتبت الكتب وأذعت الرسائل ودبجت الفصول، منذ عشرين سنة.

قالت:

- بل منذ خمس عشرة سنة.

قال:

- بل منذ عشرين.

قالت:

- لم أكن أكتب حين شبّت الحرب.

قال:

- بل كنت تكتبين، وإنّي لزعيم أن أذكرك بعض ما كتبت قبل أن تشب الحرب.

قالت:

- فإنّي لم أكن قد بلغت الخامسة عشرة.

قال:

- لن أقول إنّك شيخة في السن، ولو قلت ذلك لكذّبني ما أرى وما أسمع.

فعلا وجهها احمرار شديد، ومسّت يده في رفق كأنّما تريد أن تضربه. وهي تقول:

– متى تدع هذا العبث. ومضى هو في الحديث.

فقال:

– أنت على نضرة شبابك شيخة في الأدب. قد كتبت منذ زمن طويل، وعلّمت أجيالا مختلفة من الشباب وتخرّجت عليك طبقات مختلفة من الكتّاب.

قالت:

– تعال نتفق. لسنا شيخين ولا شابّين، وإنّما نحن شيء بين ذلك وأنت أدنى إلى الشيخوخة وأنا أدنى إلى الشباب.

قال:

– ولا هذا، فلا بدّ من أن نتفق على معنى الشيخوخة في الأدب، فليس يكفي أن نكون قد اصطنعنا الأدب منذ زمن طويل. وأثرنا في أجيال مختلفة من الكتّاب لنكون شيوخا، وليس من الحق أن كل أب شيخ، ولا أن كل جد شيخ. فقد نكون آباء، وقد نكون أجدادا، ولكننا على ذلك لسنا شيوخا، إنّما الشيخوخة ضعف. وما أرى إلاّ أنّ الشيخ هو الذي أخذه الضعف، وبلغ منه العجز والفتور، فاضطر إلى العقم، وحيل بينه وبين الإنتاج. أفترين إنّا قد

انتهينا إلى هذه الحال؟ إنّك تكتبين في كل يوم، وإنّي أكتب في كل يوم. والناس يقرؤون لك ويقرؤون لي، والناس يعجبون بك ويرضون عن بعض ما أكتب.

قالت:

– بعض هذا التواضع.

ولكنه مضى في الحديث فقال:

– وما زالت آمالك وآمالي في الأدب أبعد من أن تحد، وأوسع من أن تحصر، وما زلنا نتم الفصل أو الكتاب وإذا نحن نفكر في فصل جديد أو كتاب طريف، نريد أن نكتبه أو نذيعه، وما دمنا نجد هذه القوة، ونملك هذا النشاط ونعرض آثارنا على الناس، ومنهم هؤلاء الشباب، فلسنا شيوخا ولا قريبين من أن نكون شيوخا.

قالت:

– ليهلك هذا الشباب الذي تحبه وتحرص عليه، وتخشى أن يغتصبه منك الشبان، ولقد كدت أرضى منك بهذا الحديث وأحمد لك إحياء الأمل في نفسي لولا أجد من الضعف ما لا تجده، وأحس من الهزيمة ما لا تحس. فأنت تكتب

وتفكر في الكتابة، وأنت تنشئ وتتهيأ للإنشاء، أما أنا فلا اكتب ولا أفكر في الكتابة وان كتبت فلا أكتب للناس وإنما أكتب لنفسي، ولا أتحدث إلى الناس وإنما أتحدث إلى نفسي. ولعلي لا أذكر الناس في هذا الحديث وإنما أذكر نفسي. إنما أنا شيخة قبل أن أبلغ سن الشيوخ. أمحزونة أنا لذلك أراضيه أنا به؟ لا أدري، ولعلي أحزن له حينا وأرضى عنه حينا آخر. ولكني على كل حال لا أجد في نفسي هذا النشاط الذي يمكنني من رفض الشيخوخة.

قال في صوت هادئ حار:

– كلا يا سيدتي، هذه أزمة من أزمات الشباب ليس بينها وبين الشيخوخة سبب، وأنا زعيم بأن هذا الصيف لن ينقضي حتى يتحدث الناس عنك فيطيلوا الحديث، ويعجب الناس بك فيكثروا الإعجاب. وسأكون أنا أحد هؤلاء المتحدثين وأحد هؤلاء المعجبين ولكن حديثي عنك وإعجابي بك لن يقعا من نفسك إلا كما يقع منها حديث غيري من الناس وإعجابهم.

قالت:

– فأنت إذن تريد الثناء.
قال:
– كلا وإنما أريد شيئاً آخر خيرا من الثناء , أريد أن أسبق الناس إلى قراءة شيء مما تكتبين.
قالت:
– دعني ودع ما أكتب ومالا أكتب وحدثني عن ظاهرة أخرى في الأدب المصري ظهرت عنيفة في هذه الأيام.
قال:
– وما هي؟
قالت:
– ألست ترى غضب الأدباء من الشيوخ والشبان.
قال:
– دعي لفظ الشيوخ. فليس في أدبائنا شيوخ.
فضحكت وقالت:
– ألست ترى أن الأدباء جميعا يضيقون بالنقد ولا يحتملونه، ولا يطيقون الصبر عليه. وكيف تفسر هذه الحدة؟ وأين تجد العلة لهذا الضيق؟ لقد كنت أريد أن أجد

في هذه الحدة والضيق دليلا على شيوخة الأدباء، ولكني أراهما شائعين حتى عند الذين لا أشك ولا تشك أنت في انهم من الشبان. فهم أبغض للنقد والناقدين من كل إنسان. ومهما أعجب فلن ينقضي عجبي من كاتب أو شاعر ينشر نثره أو شعره على الناس في كتاب مطبوع أو في صحيفة سيارة فيخرجه بذلك عن ملكه الخاص، ويجعله بذلك ملكا للناس جميعا. ثم يأبى على الناس بعد ذلك أن يتصرفوا في ملكهم كما يريدون.

قال:

– إن الكتاب والشعراء يسرفون على قرائهم ويكلفونهم شططاً، فهم يغضبون إن لم يقرأهم الناس، وهم يغضبون إن قرأهم الناس، ونالوهم بشيء من النقد ولو خفيفا. ولقد أتردد أحيانا في أن أقرأ الكتاب أو الديوان يرسله إلي صاحبه، لأني واثق باني قد أرى فيه غير ما يحب الكاتب أو الشاعر. فان سكت عنه أثمت في حق الأدب وفي حق نفسي، ولم يرض مني صاحب الكتاب أو الديوان بهذا السكوت، وان قلت ما أرى فتحت بابا من أبواب الجدال

ليس إغلاقه بالأمر اليسير، ولعله لا يغلق إلا على كثير من الموجدة.

قالت:

- هذا اعوجاج في أخلاق الأدباء كنا ننكره على شيوخنا المتقدمين، وكنا نقدّر أن أدباء الحيل الحديث سيقومونه في أنفسهم والناس، فاخلفوا الظن، وكذبوا الرأي، وأصبحوا خليقين أن يقومهم المقومون سواء أرضوا بذلك أم كرهوه.

فهمّ أن يتكلم، ولكنها مضت في الحديث قائلة:

- على أنهم لا يضيقون بالنقد فحسب، ولكنهم يتهالكون على الثناء فما أشد ثورتهم على الناقدين! وما أحسن لقائهم للمقرظين!

قال:

- ومع ذلك فإني أتهم كل مقرظ، وأسيء الظن بكل تقريظ، وأعتقد اعتقاد الموقن أن النقد مهما يشتد ومهما يسرف صاحبه فهو أنفع وأجدى. لأن الكاتب إلى أن يعرف عيوبه ويتبين مواضع الضعف في آرائه وألفاظه

وأساليبه، أحوج منه إلى أن يقال له أحسنت حين يحسن، وأصبت حين يصيب.

ومر فتى لم يبلغ السادسة عشرة، صبيح الوجه رث الزي حافي القدمين يحمل سلة فيها باقات من زهر، فوقف على الصديقين وقدم إليهما أزهاره.

قال الصديق لصاحبته:

– اختاري.

قالت:

– أليس من الاختيار بد؟

قال الفتى:

– لابد من ذلك يا سيدتي فإني في حاجة إلى العشاء.

هنالك اضطرب بصرها بين باقتين في إحداهما ورد، وفي الأخرى قرنفل.

قال الرجل للغلام:

– ضع هاتين الباقتين.

ثم التفت إلى صاحبته وهو يقول:

– أما أنا فأحب لثم الورد وشم القرنفل.

لغو الصيف[٧]

(2)

– من هنا، يا أستاذ من هنا!

وأذن لي في أن أسعى بين يديك فلا بد لك من دليل.

ثم سعت أمامه رشيقة أنيقة في طريق طويلة جميلة، يحفّها من جانبيها الشجر والزهر، وفيها قليل من ضيق، وشيء من التواء.

وقد استمتعت الأشجار القائمة على جانبيها بشيء من الحرية عظيم لا يستمتع به الناس في هذه الأيام، فمدت أغصانها كما شاءت في غير نظام، حتى اختلط بعضها ببعض والتف بعضها ببعض.

وجعلت الآنسة تسعى أمامي رشيقة رفيقة، وتجدُّ في التفريق بين هذه الأغصان الملتفّة المتعانقة لتشقّ طريقها وطريق صاحبها، وكأنها كانت تجد في ذلك شيئاً من العسر اللذيذ، فكانت تحاول أن تعتذر بهذه الجُمل السهلة اليسيرة الفارغة التي تقال في مثل هذه الحال:

- ليست الطريق سهلة هنا، يجب أن تحتاط، وما رأيك في هذه الأغصان التي تريد أن تداعبنا وإن لم نطلب إليها المداعبة؟
- حقاً لقد أسرفنا في إهمال هذه الأشجار فأسرفت في الانتفاع بحريتها.

وكان صاحبها يجيب على هذه الجمل بضحك فارغ لا يدلُّ على شيء إلا على أنه لم يكن يجد ما يقول. لأنه لم يكن يسمع لهذه الجمل التي تلقى إلا بإحدى أذنيه.

وقد كانت نفسه كلها مفتونة بهذه الطبيعة الحرة المطلقة، وبما بينها وبين حياة الناس في هذه الأيام من تناقض واختلاف. ولعله كان يُعجبْ بهذا القوام المعتدل الذي كان يسعى أمامه في رفق، ويجاهد هذه الأغصان في لباقة وظرف، ولكنه كان يخفي حتى على نفسه هذا الإعجاب الذي لو أحسّتْه صاحبته لضاقت به ضيقاً شديداً. حتى إذا طال سعيهما في هذه الطريق الخفيّة الملتوية انتهيا إلى رقعة واسعة رحبة من الأرض، وقد فرشت ببساط ناعم كثيف من

العشب، وانتثرت فيها قطع بديعة من الزهر، قد نسِّقت أحسن تنسيق وأجمله، وقامت في وسطها مائدة قد نثرت عليها أوراق الورد في كثرة تلفت النظر. فلما انتهيا إلى هذا المكان الهادئ الباسم الجميل، أرسلت من صدرها زفرة ضاحكة وهي تقول:

- لقد انتهى الجهد وآن للمتعب أن يستريح، اجلس يا سيدي فهنا يحسن الحديث فيما أظن.

قال:

- بل هنا يحسن الاستماع.

قالت:

- الاستماع لمن! الاستماع لماذا؟

قال:

- الاستماع لك والاستماع لهذا الصمت الناطق من حولنا.

قالت:

- دع عنك الاستماع لي فما أحسب إلا أنك قد سئمته، أو ستسأمه، وما أحسب إلا أنك قد زهدت فيه أو ستزهد فيه حين يستأنف بيننا الحوار، فيستأنف بيننا الحوار من غير

شك، ولكن حدِّثني عن الاستماع للصمت كيف يكون؟ وحدثني عن الصمت كيف ينطق أو كيف يصدر عنه الكلام؟

وكانا في أثناء هذا الحديث قد أخذا مكانهما إلى المائدة وجهاً لوجه. وكان صاحبها حائر النظر بعض الشيء يردده بين السماء والأرض، ويردده بين قطع الزهر المنتثرة من حوله وبين آنية الزهر القائمة على المائدة، وبين أوراق الورد المنثورة بين يديه.

قالت:

- ألست قد زعمت لي منذ أيام أنك تحب لثم الورد وشم القرنفل فهذا هو الورد تستطيع أن تمتع نفسك به كيف أحببت، أنظر إليه مختلفاً ألوانه مستوياً على سوقه، بعضه قد هام بالحياة والضوء فانبسط لهما انبساطاً وأخذ يلتهمهما التهاما، وبعضه قد أحبهما، ولكنه يسمو إليهما في استحياء فيتفتح لهما قليلا قليلا، وبعضه يحسّهما وينعم بهما ولكنه لا يكاد يشعر بهذا الحس وهذا النعيم، فهو أكمام لم تتفتح بعد.

- وانظر إليه أسيراً في هذه الآنية لم يبق فيه من الحياة إلا ذماء يسير يمسكه عليه هذا الماء الذي تحتويه الآنية. وانظر إليه صريعاً قد فقد الحياة وتفرقت أوراقه، وانتثرت بين يديك غضة، ولكنها تسرع إلى الذبول أو يسرع إليها الذبول.
- وهذه زهرات من قرنفل قد هُيِّئتْ لك وفرقت في آنية الورد تبعث إليك عرفها هادئا قويا. فماذا تريد فوق هذا؟

قال:

- لا أريد إلا أن تمضي في هذا الحديث الذي أخذت فيه منذ الآن، فإني لا أعرف ترجمة عن هذا الصمت الذي كنت أريد أن اسمع له أبْلغْ من هذه الألفاظ التي ينثرها حديثك العذب.

قالت:

- وما زلت مشغوفاً بالعبث لا تفرغ منه إلا لتعود إليه. لقد أنبأتني عن حبك للورد والقرنفل، فها أنت ذا بين الورد والقرنفل، فحدثني أنت بحديثهما فأنت أعلم به وأقدر عليه مني.

قال:

- ما أعرف يا آنسة أن لهما حديثاً يحكى، فان كان لهما حديث فما أعرف أن أحداًيستطيع أن يحكيه غيرهما فاستمعي لهما إن شئت، وغيركِ فاسمعيني حديثهما إن شئتِ، فإنما أنت زهرة بين الزهر.

قالت:

- كأنك تريد أن تحفظني. فاعلم أنك لن تبلغ ما تريد، ولن تثير حفيظتي، ولن تصرفني عما أزمعتُ من أن أسمع منك حديث الورد والقرنفل. فلا تلتوِ به فلن ينفعك الالتواء.

وأقبلت خادم تسعى وهي تحمل صينية عليها إبريق وأكواب. فوضعت إبريقها، وصفّت أكوابها، وانصرفت متثاقلة. وكانت عجوزاً شمطاء قد انحنت قامتها، وأسرف الذبول في وجهها، فلم تكد تبقى فيه قطرة من حياة. وكان منظرها في هذا الفناء مناقضاً أشد المناقضة لما يحيط بها من هذه الحياة القوية، فهمّ أن يتكلّم، ولكن صاحبته قالت وقد فهمت عنه ما كان يريد:

- ومع ذلك فهي أنشط منك للحياة، وأحرص منك على نعيمها ولذّاتها، لا يفوتها موسم، ولا يفلت منها عيد، ولا تقصَّر عن فرصة إن سنحت لها لتشترك فيما يراه الناس سعادة ونعيماً أو لهواً وصفواً. وهي بعد هذا كله صماء مغرقة في الصمم تستطيع أن تتحدث إليها وتصيح بها فلن تسمع لك ولن تفهم عنك. وهي بعد هذا وذاك قد نيَّفت على الستين، ولكن هات حديث الورد والقرنفل.

ثم عمدت إلى الإبريق فملأت منه قدحين وهي تقول:

- لقد أنسيت، فهذا يوم الورد تستطيع أن تراه وأن تشمه، وأن تلمسه، وأن تلثمه، وأن تشربه أيضاً. فليس في هذا القدح بين يديك إلا ماء الورد.
- والآن تحدث، فقد يحسن الحديث.

قال:

- أيّ حديث يحسن في مصر وما أعرف بلداً أفضح لسر الحديث، وأكلف بنشره وإذاعته من هذا البلد. أتذكرين؟

قالت:

- وكيف لا أذكر؟

- إنك تشير إلى مجلسنا ذاك على شاطئ النيل، وإلى حديثنا هناك عن شيوخ الأدب وشبابه. فقد نشر هذا الحديث في الرسالة.

قال:

- ومع ذلك فلم يكن في مجلسنا ولا قريباً منه أحد.

قالت:

- ولست أنت قد ألقيته إلى من أذاعه، هذا شيء لا شك فيه.

قال:

- ولا أنت، هذا شيء لم يخطر لي.

قالت:

- وإذن؟

قال:

- وإذن فهو طائر من هذه الطير التي تؤوي إلى الأغصان إذا كان الأصيل ودنا الليل فتسمع حديث الناس وتعيه، وتلقيه في روع الكتّاب والشعراء. أو هو جنيٌّ من هذه الجن التي تألف شاطئ النيل فتقيم في ظل الأشجار التي تقوم عليه، أو تسكن تحت هذا الماء الذي يجري فيه،

وتسمع أحاديث الناس والأشياء وتعيها فتنقلها إلى الكتاب والشعراء وتنطق بها ألسنتهم، وتجري بها أقلامهم. ولهذا لست مسرفاً في حب الحديث، وفي حب الحديث عن هؤلاء الذين لا يحبون أن يتحدث الناس عنهم إلا بما يريدون لا بما يريد الناس.

قالت:

- من الظواهر التي لا تحتاج ملاحظتها إلى دقة ولا إلى ذكاء أن مصر مفشية للسر، قليلة الحرص على الكتمان. انظر إلى بيئاتها المختلفة، فلن ترى لها سراً. أحاديث ساستها وقادتها وأدبائها وأصحاب الأعمال فيها ذائعة شائعة يعرفها الناس جميعاً ويتناقلها الناس جميعاً. ومصدر هذا في أكبر الظن أن طبيعة مصر نفسها صافية واضحة، مسرفة في الصفاء والوضوح، سماؤها صحو دائماً، لا يتكاثف فيها الغمام، ولايتراكم فيها السحاب، وأرضها مبسوطة هينة لا ترتفع فيها الجبال الشاهقة، ولا تنتثر فيها الكهوف والأغوار، ولا تنبت فيها الغابات الكثيفة الملتفّة، فأمرها كله ظاهر، وحديثها كله شائع،

وشمسها المشرقة دائماً لا تؤتمن على سر مصون. على أننا لم نقل في حديثنا ذاك شيئاً يسوء الأدباء أو يغضب أحداً، فليس من إذاعته بأس وإن كنت لا أحب ذلك، ولا أرتاح إليه، ولا أخفي عليك أني إنما أثرت أن يكون اجتماعنا الليلة عندي لأني واثقة أن لنا من العزلة ما نحب، وبأن أحداً لن يستطيع أن يندسّ لنا، أو يتسمّع علينا.

قالت:

- إلا هذه الطير التي تؤوي إلى الأغصان إذا أقبل الأصيل ودنا الليل، وإلا هذه الجن التي تستظل بالأشجار وتتضاءل أحيانا حتى تتخذ لنفسها منازل في ثنايا العشب وبين أوراق الأزهار. في هذه الطير، وفي هذه الجن، وفيما يحيط بنا من الزهر والشجر من يسمع لنا وينمّ بما نتساقى من ماء الورد، وما يجري بيننا من لغوِ الحديث،

قالت:

- وأيٌّ بأس بأن يذاع ما يجري بيننا من لغو الحديث؟
- إنما يكره الناس جد الحديث ويخافونه، فأما لغو الحديث فالناس مزدرون له، أو راغبون فيه.

قال:

- وهل تظنين أنا نستطيع أن نأخذ بالجد حين نعرض للحديث عن الأدب والأدباء في مصر؟ وأين تجدين الجد في حياة الأدب والأدباء؟ أتجدينه في هذا الحوار الذي يطول ويطول حتى يثقل ويمل حول ألفاظ وقعت في كتاب، أو حول رأي رآه ناقد في كتاب، أو حول حديث كان بين كاتبين، أو مناظرة يسيرة كانت بين أديبين؟
- أليس هذا كله دليلاً على فراغ البال واحتياج الأدباء إلى ما يشغلون به أنفسهم عن هذه الأحاديث الطوال الثقال التي تضيّع الوقت، وتفني الجهد دون أن تنفع أو تفيد؟

قالت:

- هذا حق ولكن الأدباء أصحاب كلام وما داموا يتكلمون فهم يؤدون حق الناس عليهم فالناس لا ينتظرون منهم إلا أن يكتبوا لهم ما يقرؤون.

قال:

- لا كل ما يقرؤون بل ما ينتفعون به إذا قرؤوه.

قالت:

- هنا نختلف فقد ينبغي أن نتفق أولاً على معنى الانتفاع بما يقرأ أنت تريد إذا قرأت كتابا أو فصلا أن تفيد شيئا جديدا أو أن تضيف علما إلى علم وأن تنمي حظك من الثقافة أو أن يثير ما تقرأه في نفسك عاطفة أو لونا من ألوان الشعور وأنت لا ترضى من القراءة دون هذا.
- فأنت عسير ليست السبيل إلى إرضائك سهلة ولا ويسيرة. وأنت لذلك تلتمس قراءتك عند قليل جدا من أدباء الشرق وعند عدد غير كثير من أدباء الغرب. ولكنك تخطيء كل الخطأ حين تزعم أن القراء جميعا يطلبون إلى الكتّاب مثل ما تطلب إليهم. ولو قد فعلوا لكان الأدباء شر الناس حالاً وأدناهم إلى العجز والإفلاس.
- أنت وأمثالك تشقون على الأدباء فيما تطلبون ولكني أنا وأمثالي لا نطلب إليهم كل هذا أو لا نطلبه إليهم في كل وقت، فنحن نحب أن ننتفع إذا قرأنا ولكنا نكتفي من القراءة بما دون ذلك. نريد منها أن تلهينا إذا ركبنا الترام أو القطار وان تعيننا على إنفاق الوقت إذا لم يمكنا نشاطنا من العمل وان تدعو إلينا النوم إذا أبطأ علينا.

- ولا تغضب أن زعمت لك إننا قد نضيق بالقراءة الخصبة الغنية ونؤثر عليها هذه القراءة السهلة الفارغة التي لا تنفع ولا تضر ولكنها تعين على إنفاق الحياة. وأنت تستطيع أن تنكر على أدبائنا ما شئت ولكنك لن تستطيع فيما اعتقد أن تنكر عليهم انهم يكتبون لنا من الكتب وينشرون لنا من الفصول ويثيرون بيننا من ألوان الخصومة والحوار ما يمكننا من أن نركب الترام والقطار ومن أن نقرأ إذا أجهدنا العمل ومن أن نتعجل النوم إذا طال انتظارنا له.
- وأنت تظن أن هذا قليل وأؤكد لك أن هذا كثير فليس الأمر ذو الخطر في الحياة هو أن نتعلم ونثقف أنفسنا وإنما الأمر ذو الخطر حقاً هو أن نحتمل الحياة وأدباؤنا يعينوننا على احتمال الحياة حقا بما يكتبون ويذيعون.

قال:

- قد يكون هذا حقا ولكنه مؤلم.

ثم سكت وأطال السكوت. وسكتت هي فأطالت السكوت.

ثم مد يده إلى قدحه فاستنفد ما كان فيه من ماء الورد. وأراد أن يعود إلى صمته ولكنها سألته باسمة:

- فيم هذا الصمت الطويل! أمستمع أنت لحديث الزهر؟ أم مشفق أنت من الطير والجن أن تنم عليك بما تقول؟

هنالك ابتسم ابتسامة شديدة المرارة وقال في صوت حزين:

- كلا لست استمع للزهر ولا أخاف الطير والجن وإنما أستمع لنفسي وأخافها. فهل تعلمين أنك قد بغضت إليّ الكتابة والإنتاج الأدبي منذ اليوم.

قالت وهي مغرقة في الضحك:

- أنا! ولماذا؟

قال:

- من يدري؟ لعلي لا أكتب ولا أنشر إلا لأعين القراء على أن يركبوا الترام والقطار وينفقوا الوقت إذا أضناهم العمل ويتعجلوا النوم إذا أبطأ عليهم النوم.

قالت:

- لم أقل هذا وهبني قلته أليس كذلك يكفيك أن تكون عوناً لقرائك على احتمال الحياة؟

قال:

- لا.

قالت:

- إنك لواسع الطمع عظيم الكبرياء.

ثم مدت يدها إلى أناء من آنية الزهر فأخذت منها قرنفلة وضعتها في صدره ووردة أدنتها من فمه.

وقالت:

- لتلتمس عزاءك عند هذه الوردة وهذه القرنفلة فما أرى إلا انهما قادرتان على هذا العزاء. ولكنك مخطئ أن ظننت انك قد أنسيتني بهذا الحديث قصة الورد والقرنفل فما زلت أذكرها وأنتظرها. فتحدث.

قال:

- إنها يا آنسة قصة طويلة وليس هذا وقت البدء فيها. فإذا عدت من رحلتك السعيدة إلى أوروبا فسأحدثك بها، وأنا زعيم بأنك ستجدين في الاستماع لها لذة ورضى.

لغو الصيف[٨]

(3)

سمعت طرقا خفيفا فرفعت رأسها وصوتها آذنة بالدخول، ومدت عينها إلى الباب فلما فتح لم يرعها إلا صديقها الأديب يسعى إليها مشرق الوجه باسم الثغر مبسوط اليد مرتبكا مع ذلك شديد الحياء.

قالت وقد غشي وجهها احمرار رقيق زاده جمالا وحبا إلى النفوس، مصدره الدهش لهذا المقدم غير المنتظر، أو مصدره زيه المهمل وثوبها الذي لبسته لنفسها لا للناس ولم تكن تقدر إن الطارق أحد غير الخادم التي تعودت ان تطرق عليها الباب في رفق إذا كانت الساعة الخامسة من كل يوم لتحمل إليها الشاي، فلما رأت صديقها ارتاعت لمرآه، وقالت في دهش وخجل واضطراب:

- أنت من أين أقبلت؟ انجمت من الأرض أم هبطت من السماء؟

قال ولم يكن اقل منها ارتباكا واضطرابا:

- نعم أنا أقبلت من حيث تريدين ولكن لي إليك حاجة يا آنسة أعرضها عليكِ قبل التحية، وأتمنى لو تجيبينني إليها قبل السؤال والجواب، فسيكون السؤال طويلا دقيقا، وسيكون الجواب ملتويا مرتبكاً، ولكن حاجتي يسيرة فاسمعيها مني واقضيها لي، ثم لنأخذ بعد ذلك فيما تحبين.

قالت وقد أخذت تثوب إلى نفسها وإلى ثوبها:

- من أين أقبلت؟ وكيف أراك في نيس وقد تركتك في القاهرة على انك ستقضي فيها الصيف؟

قال:

- ثقي يا آنسة إني قد سمعت سؤالك ووعيته ووعيت ما يحيط به من عجب وإنكار أني سأجيب وسأحاول أن أزيل هذا العجب وأمحو هذا الإنكار ولكن حاجتي اسمعيها واقضيها قبل كل شئ.

قالت:

- لا قبل أن نجلس.

ثم عادت إلى كرسيها وقد حولته شيئا عن المائدة وأشارت إليه أن اتخذ هذا الكرسي وأخذت تجمع صحفاً كانت منثورة على المائدة.

ثم قالت مبتسمة:

وما عسى أن تكون هذه الحاجة التي تقدمها بين يدي تحيتك، وقد بعد العهد بينك وبيني والتقينا من وراء البحر، فقد تركتك منذ أسبوعين.

قال:

بل منذ عشرة أيام إن لم أخطئ الإحصاء، فقد زرتك قبيل السفر...

فقطعت عليه الحديث قائلة:

نعم، قد ذكرت فهات حاجتك فإني لم أتعود أن انتظر تحيتك وعبثك كل هذا الوقت الطويل.

قال:

حاجتي يسيرة وهي ألا تلومني ربة الدار، فقد مكرت بها واحتلت عليها، وما زلت أخدعها عنك وعني حتى تركتني أطرق الباب وأدخل عليك في غير استئذان سابق.

فأغرقت في الضحك حتى استلقت إلى كرسيها وهي تقول:

إنها لحاجة عسيرة، لست أدري كيف أقدر على إرضائها وقد أذنت لك فيما كنت تريد وطرقت الباب وفاجأتني بغير إذن سابق مني بذلك، وفيم كان كل هذا المكر، وفيم كان كل هذا الاحتيال؟ ومتى استباح أمثالك أن يفاجئوا أمثالي على هذا النحو، وفي مثل هذا الوقت من النهار؟

هنالك اشتد ارتباكه حتى بلغ الاضطراب أو كاد يبلغه، فلم يكن يقدر أنها ستلقاه هذا اللقاء ولا إنها ستنكر هذه المفاجأة، ولعله كان يظن بل كان يوقن أن سرورها بلقائه سيكون أشد من حاجتها إلى الاستطلاع، وسيكون أشد من إنكارها بهذه المفاجأة فلما رأى منها هذا الإلحاح في السؤال والتشدد في النكير فقد ما كان يملك من الأسباب، واختلط عليه الأمر فلم يدرِ ماذا يصنع ولم يعرف كيف يقول.

ولو أنه كان على شئ من البصر بصاحبته والعلم بدخيلة نفسها لرأى أنه لم يكن مخطئاً حين قدر أنها ستبتهج بلقائه

ولكنه كان شديد الذكاء قوي الفطنة واسع الحيلة ما بعد عن النساء وعن صاحبته هذه خاصة، فإذا لقي واحدة منهن أو لقي صاحبته هذه فهو رجل ساذج أول الأمر، لا حظ له من ذكاء ولا من فطنة، ولا قدرة له على ثبات أو فهم، حتى إذا اتصل الحديث وتنوع استرد ملكاته قليلا حتى يعود كدأبه في الحياة العادية، ذكي القلب قوي الفطنة متصرفا في ألوان الحديث.

فلما رأت ارتباكه واختلاط الأمر عليه واضطراب لسانه في فمه دون أن يبلغ الإفصاح عما كان يريد، رقت له وأخرجته من حيرته بإجابته إلى ما كان يريد وإعلانها إليه إنها لن تلوم صاحبة الدار ولن تظهر لها سخطا ولا إنكارا.

ثم قالت:

والآن حدثني من أين أقبلت وكيف أراك هنا اليوم، وقد تركتك في القاهرة منذ عشرة أيام؟ أنجمت من الأرض أم نزلت من السماء؟

قال:

إن عشرة أيام تكفي لقطع الأمد من القاهرة إلى الإسكندرية ولعبور البحر إلى مرسيليا (وطولون) ولبلوغ مدينة نيس حيث تقيمين قبل أن تستأنفي السفر إلى تلك المدينة الصغيرة الجامعية من مدن فرنسا الوسطى لتسمعي دروس الصيف.

قالت:

فإني لا أشك أن عشرة أيام تكفي لهذا كله ولا أكثر من هذا كله ولكن تركتك في القاهرة غضبان أسفا لأنك ستقضي الصيف حيث لم تكن تعودت أن تقضيه، ولعلك تذكر أنك كنت تحسدني وتسرف في الحسد على هذه الرحلة الجامعية التي كنت أزمعتها ولعلك تذكر أنك ما زلت تصور لي حزنك ويأسك حتى رحمتك وأشفقت عليك، فكيف استطعت أن تفارق القاهرة وترحل عن مصر تظفر بزيارة باريس؟ فأنت ذاهب إلى باريس من غير شك.

قال:

نعم أنا ذاهب إلى باريس، وماذا تكون فرنسا بدون باريس وبدون الحي اللاتيني ومونبارناس ومونمارتر؟ وقد زعموا

أن الحركة الأدبية والفنية قد أخذت تنتقل الآن من مونبارناس إلى...

قالت:

حسبك قد علمت هذا كله وعرفت رأيك فيه وسنعود إليه ولكن كيف تركت القاهرة؟ وكيف أتيت إلى باريس؟

قال:

وأي شئ أيسر من ذلك يا آنسة؟ إنما يستغرب هذا من رجل كانت تمسكه الأزمة في مصر ويعجز أجر السفينة أو نفقات الإقامة في فرنسا، فهذا الرجل إذا أتيح له السفر بعد امتناعه عليه يمكن أن يسأل أنّى لك هذا في مثل هذه الأيام الشداد. فأما إذا كان الذي يحول بين الرجل وبين السفر إرادة وزير من الوزراء أو عناد رئيس من الرؤساء فما أيسر أن يريد الوزير وقد كان لا يريد، وما أسهل أن يلين الرئيس وقد كان متأبيا عنيدا، وهذه قصتي فما زلت برئيسي حتى رق لي وما زلت بوزيري حتى عطف عليّ.

قالت:

صنع الله للرئيس وللوزير معا، فلولا ظرف أحدهما وعطف الآخر لما أتيح لك أن ترى باريس.

قال:

بل لما أتيح لي أن أسعد بلقائك في نيس وأن اسعد باصطحابك ساعة أو ساعات على ساحل البحر، هذا الساحل الجميل الهادئ القوي معا حيث نستطيع أن نرى البحر والجبل.

وقد دنا كلاهما من صاحبه في مودة وألفة.

وحيث نستطيع أن نرى الطبيعة الحرة القوية والحضارة البديعة المترفة وهذه القصور الشاهقة تشرف على البحر وتشرف عليها الجبال، وحيث نستطيع أن ننشد قصيدة بودلير هذه القصيدة الرائعة التي كنت تغنينها في القاهرة أجمل غناء، أتذكرين؟

لقد عشت دهرا طويلا تحت أروقة واسعة تضيفها شمس البحر.

قالت:

نعم كل هذا أذكره، وكل هذا أفهمه وكل هذا لا تفسير له إلا أنك قد رجعت إلى صوابك واستردت قواك موفورا واستأنفت ما ذهب من العبث والمزاح. فقد آمنت أنك سعيد بلقائي وقد آمنت أنك ستسعد وسأسعد معك بقضاء ساعة أو ساعات على هذا الساحل الجميل.

وقد آمنت بأن رئيسك خليق بالشكر لأنه رق لك بعد أن قسا عليك، وإن وزيرك حري بالثناء عليك لأنه لطف بك بعد أن كان شديدا عنيفا، ولكني لن أتحدث إليك الآن ولن أسمع منك الحديث عن الجبل والبحر ولا عن الصخور والقصور، فقد يتاح لنا الحديث عن هذا كله بعد حين. إنما أحب أن أسمع منك أنباء مصر.

قال:

إنهما لخليقان بالشكر والثناء حقا ولا سيما حين تعلمين...

قالت:

لا أريد أن أعلم شيئا.

قال وهو يضحك ضحكا ملئه المكر والإلحاح:

بل يجب أن تعلمي لتضاعفي الشكر وتجزلي الثناء فإني لم أرحل للسياحة ولا للراحة ولا لرؤية باريس وإنما رحلت...

قالت:

لأمر من أمور الدولة فستدرس شأنا من شؤون التعليم أو فنا من فنون النظام أو لونا من ألوان الإدارة أو شيئا من هذه الأشياء التي يرحل الموظفون لدرسها في أوروبا أثناء الصيف، فيسرحون ويمرحون ويلهون ويلعبون ويكتبون في آخر الصيف تقريرا يرفعونه إلى الرئيس أو إلى الوزير، فيتلقى الوزير أو الرئيس هذا التقرير ويتلقى صاحبه كلمة شكر وثناء وقد فهم الرئيس عن صاحب التقرير وفهم صاحب التقرير عن الرئيس ما يريد كل منهما أن يفهم عن صاحبه، وأؤكد لك أني أضاعف شكري لصاحبيك وثنائي عليهما؛ ولكن أرحني من حديثهما كما أرحتني من حديث البحر والجبل والساحل وعد بي إلى مصر.

قال:

ما أشد شوقك إلى مصر وتلهفك إلى الحديث عنها! ألم تشبعي من مصر وقد أقمت فيها سنة كاملة منذ رحلتك الأخيرة؟

أمشتاقة أنت إلى مصر ولما يمض على فراقك إلا عشرة أيام؟

قالت:

فإني لا أريد أن تحاسبني على ما أجد أو لا أجد من الشوق إلى مصر وعلى ما أحس أو لا أحس من الضيق بمصر، وإنما أريد أن تحدثني عنها كيف تركتها؟ وكيف تركت أهلها؟

ثم مست هذا الزر الكهربائي الذي لا تخلو منه غرفة من غرف الفنادق فما أسرع ما أقبلت الخادمة فهمت أن تطلب إليها الشاي ولكنه اعترض دون ذلك وقال:

ماذا تريدين أجننا حتى نتناول الشاي في غرفة مغلقة والجو صحو والماء صفو والشمس توشك أن تنحدر إلى مغربها فترسل على الجبل والبحر..

قالت:

حسبك فإني أستطيع أن أتم ما تريد أن تقول.

قال:

وإذن فهلم نتناول الشاي حيث نستطيع أن نستمتع بهذا الجمال الذي لا نجده في مصر.

وكان حازما ملحا، فلم تجد بدا من أن تسمع له وتستجيب لدعائه، فصرفت الخادم ونهضت فغابت عنه قليلا في غرفة مجاورة متصلة بالغرفة التي كان فيها. ثم عادت إليه وقد اتخذت زيها المنظم المنسق الذي عرفه في القاهرة، فلما رآها اطمأن إلى هذا الزي الذي كان يألفه، ولعله أسف على ذلك الزي المهمل الذي كان أعجبه والذي كان قد أخذ يطمئن إليه.

وما هي إلا لحظات حتى كانا يسعيان معا في هذه الطريق الجميلة على ساحل البحر تلك التي يسمونها في نيس طريق الإنجليز.

وكان طرفه حائرا بين البحر وهذه الفنادق الضخمة المشيدة، وهؤلاء الرجال والنساء الذين كانوا يذهبون

ويجيئون في هذه الطريق وقد اتخذوا للرياضة والشاي زينتهما. لكنها لم تتح له الاستمتاع بهذه الحيرة، فما أسرع ما ردته إلى مصر وحديثها، وعادت تسأله عن المصريين كيف تركهم.

قال ولم يخف شيئا من الضجر الباسم العابث:

تركتهم من خمسة أيام كما تركتهم أنت منذ عشرة أيام، وكما سيتركهم كل مسافر ويلقاهم كل عائد، وكما يترك كل رجل من الناس أي جيل من الأجيال، تركتهم قوما كراما يكرمون آبائهم وأمهاتهم، ويؤثرون أبنائهم وبناتهم، ويشفقون من الآلام، ويسرعون الى اللذات، ويكثرون القول، ويقصدون في العمل، ويفرون من الدور، ويستقرون في الأندية، ويطيلون الحوار في الأدب والسياسة، ويقرءون الصحف ويعبثون بكتابها...

قالت:

ياله من سيل جامح لا يقف ولا يهدأ ولا يتئد، ولا يتخير ما يحمل، ما عن هذا أسألك، وما طلبت إليك أن تصور لي

المصريين كما تراهم أنت بهذا الرأي المظلم القاتم، الذي لا يعجب بشيء ولا يرضى عن شيء، بل ينكر كل شيء، إنما سألتك...

قال:

ياله من جدول هادئ متئد، عذب ظريف، لا يحمل غثاء ولا جنادل، وإنما هو صافي الصفحة نقي الأديم، كله رضى وكله ابتهاج، وكله أمل، إنما تسألينني عن الأدباء أليس هذا ما كنت تريدين.

قالت:

هو هذا، ومتى رأيتني أتحدث إليك عن غير الأدباء؟

قال:

فقد تركت الأدباء في شغل شاغل وهم مقيم، يقولون فيطيلون، ويعملون فلا يبلون، وكأنهم هذا القطار الذي يهم بالحركة فيكثر فيه الضجيج والعجيج والقعقعة والاضطراب، وهو ثابت في مكانه لا يريم، لأن الله لم يأذن له بالحركة بعد، أو لأن أداة من أيسر أدواته لم يتح لها أن تشترك في العمل مع أخواتها.

قالت:

وما ذاك؟

قال:

إنهم يذكرون حافظاً، فقد دار العام على وفاته، ولم يصنع له أحد شيئا. فهم يلومون أنفسهم وهم يلومون غيرهم، وهم يلومون مصر كلها، يلومون الشعب لأنه قصر غير عامد، ويلومون الحكومة لأنها تعمدت التقصير، حتى إذا أسرفوا في اللوم وأعياهم الإسراف عزوا أنفسهم وعزوا الشعب الذي قصر عن غير عمد، والحكومة التي قصرت عن عمد بأن حافظا كان أديبا حقا، فلا غرابة في أن تدركه حرفة الأدب. وقد كان حافظ رحمه الله حسن الحظ، ميسرا له في الأمر بالقياس إلى زميله في حرفة الأدب منذ اكثر من ألف سنة. فأنت تذكرين أنها قد أدركت ابن المعتز فانتزعته من الخلافة، ولما يقم فيها يوما ولم يكفها أن تنتزعه من الخلافة، فانتزعته من الحياة على شر الأحوال وأشدها نكرا، أما حافظ فقد كان بائسا في حياته لم يعرف النعيم، والبؤس أيسر من الخلع،

والبؤس الدائم أيسر من البؤس الطارئ، بعد طول النعمة وحسن الحال، وقد مات حافظ على فراشه، والموت الهادئ أيسر من الموت العنيف، وحافظ بائس بعد موته لم يجتمع له الناس، ولم تمتلئ له الأوبرا، ولم تلق فيه الخطب المدبجة. ولا القصائد المنمقة. وقبر حافظ مجهول أو كالمجهول ولكن هذا البؤس كله ليس شيئا بالقياس الى بؤس آخر أشد وأمض، وهو هذا الثناء المتكلف، وهذا الإكبار المصنوع، وهذه الخطب والقصائد التي لا يراد بها وجه الله، ولا وجه من قيلت فيه، وإنما يراد بها وجه الذين يصرفون السياسة ويسيرون أمور الناس كما يحبون، وإلى حيث يحبون، فقد كان حافظ ومازال بائسا، وكان حافظ ومازال شقيا، ولكن شقاء حافظ سعادة، وبؤس حافظ نعيم، وما كان أحق شوقي رحمه الله وأجدره، بأن يشارك حافظا في هذا البؤس المجيد، فقد كان شوقي كما كان حافظ مجداً لمصر وللشرق وللأدب العربي؛ ولكن السياسة استأثرت بشوقي فازدردته ازدرادا. وعجزت عن أن تستأثر بحافظ، وأي غرابة في هذا؟

لقد كان شوقي رحمه الله هينا لينا رفيقا رقيقا، وكانت في حافظ صلابة الشعب وغلظته، وخشونة الشعب وشدته.

قالت وهي محزونة:

ولكن بؤس حافظ مهما يكن مجيدا بالقياس إليه فهو عار على مصر، ومن حق مصر لنفسها أن تكشف هذا العار.

وكانا قد بلغا ناديا من هذه الأندية التي يكون فيها الرقص مع المساء والتي يؤخذ فيها الشاي، فاتخذا مكانا منزويا فيه دون أن يتفقا على ذلك، إنما هي رغبتهما في اتصال الحديث، وزهدهما في هذا المتاع الذي يتهالك عليه الناس، ولم ينقطع حديثهما وقتا طويلا إنما هي لحظة طلبا فيها إلى الخادم ما كانا يريدان، ثم اتصل بينهما الحديث، ولكنه لم يمس أمير الشعراء ولا شاعر النيل.

قال:

ومع ذلك فلم تسأليني عن مصر والمصريين وأنت ترين مصر وأدباءها في فرنسا كأحسن ما تحبين أن تريهم؟

قالت:

في فرنسا ؟ وأين ذاك؟

قال:

ماذا تصنعين إذن منذ تركت السفينة؟ ألا تقرئين؟

قالت:

لا.

قال:

بل تكتبين، وقد كان ينبغي أن أفهم هذا، ولعلى قد فهمته حين رأيت تلك الصحف المنثورة على المائدة، والتي أسرعت الى جمعها وإخفائها حين رأيتني مقبلا عليك كأنك خفت أن أمد إليها يدا، أو أن أختلس إليها نظرة.

قالت:

لا تقل هذا ولا تسرف في التجني، فما كنت أستطيع أن أمضى في الكتابة وقد أقبلت، وما كان ينبغي لي أن أدع المائدة مختلطة كما كانت.

قال:

فإذا سألتك أن اقرأ بعض هذه الصحف التي كانت منثورة فهل تأذنين؟

قالت:

هذا شيء آخر دعنا من هذه الصحف المنثورة فستقرأها يوما ما، ولكن حدثني أين وكيف أستطيع أن أرى مصر والمصريين في فرنسا؟

قال:

تستطيعين أن ترى مصر والمصريين في فرنسا الآن، وفى هذا المكان، وعلى هذا النحو.

ثم أخرج لها صحيفة النوفيل ليترير ونشرها، وقال:

انظري.

فنظرت فدهشت فسكتت، ثم قالت:

هذا غريب! صفحة أدبية عن مصر لا يكاد يكتب فيها مصري!

قال:

ولو ترجم ما فيها للمصريين لرأوا أنفسهم كما يرونها في المرآة الصافية الناصعة، أليس قد صور لهم كاتب أمير شعرائهم العظيم تصويرا لا يصفه من قريب ولا من بعيد؟

أليس قد زعم هذا الكاتب إن قد كان لأمير الشعراء خصوم كلهم بغيض؟ أليس قد أذاع هذا الكاتب بين الفرنسيين والأوربيين الذين يقرءون هذه الصحيفة صورة عن شاعر مصر وعن أنصاره وخصومه لا تلائم رأي مصر ولا حاجتها، وإنما تلائم رأى السياسة القائمة،؟

قالت:

سأقرأ هذا الفصل، ولكن انظر.

قال:

وما تريدين أن أنظر؟ أتظنين أني لم اقرأ هذه الصفحة قبل الآن؟ ماذا تنكرين؟ فصل لصديقنا الأستاذ أنطون الجميل عن المجمع اللغوي الملكي، أي غرابة في هذا؟

قالت وهى تضحك ضحكا حزينا:

الغرابة أن يعلن عن هذا المجمع في فرنسا ولما يوجد في مصر بعد.

قال:

لم يوجد الآن فسيوجد بعد عام!

قالت:

فقد كنت أحب من صديقنا، بل كنت أحب لصديقنا أن ينتظر حتى يوجد هذا المجمع بالفعل قبل أن يكتب عنه فيطيل، فقد أرى أن فصله غير قصير، وما عسى أن يكتب بعد أن يوجد المجمع؟

قال:

ليس على صديقنا بأس من أن يكتب عن مجمع إن لم يوجد بالفعل فهو موجود بالقوة، ولا سيما إذا طلبت إليه الكتابة وأثقل عليه في الطلب، وليس إسراعه الى الكتابة في شيء هو إلى الوهم أقرب منه إلى الخيال فضلا عن الحقيقة الواقعة هو الذي أنكره عليه أو ألومه فيه، إنما أنكر عليه فهمه للمجامع اللغوية وتصويره لتاريخها عند العرب، أترين إلى أسواق الجاهليين؟ لقد كانت مجامع لغوية عند الأستاذ أنطون الجميل، ثم أترين إلى مدارس اللغة والنحو والأدب في البصرة والكوفة وبغداد وفى حلب ودمشق والقاهرة وقرطبة؟ لم تكن من المجامع اللغوية في شيء عند الأستاذ أنطون الجميل. هذا كثير ألا ترين ذلك؟

قالت:

وأكثر منه أن يستجيب صديقنا لدعوة السياسة، وأن يرضى صديقنا لنفسه أن يضع الأدب من السياسة هذا الموضع، وقد كنت أرى أنه يجب إخضاع السياسة للأدب، لأكتبن إليه.

قال:

لا تفعلي، فليس هو الآن في القاهرة، إنه يطوف في لبنان فانتظري حتى تعودي ويعود، ثم خذي معه في هذا الحديث، ولكن اقرأي هذا الفصل وفكري فيه، فهو فصل من فصول الصحف السيارة في مصر لا أكثر ولا أقل.

ولكن حدثيني أتريدين أن تطيلي الإقامة في نيس؟

قالت:

وأنت حدثني كيف وقعت إلى نيس وأنت تقصد إلى مدينة النور؟

قال:

وهل يكون النور إلا حيث أنت يا آنسة؟

قالت مغيضة:

هل تعلم أنك تثقل علي أحياناً بهذا العبث السخيف؟

قال:

ما أردت هذا ولا فكرت فيه، وما أرى أني ألام إن كنت ثقيلا، فلعل الثقل أن يكون بعض طبيعتي؟ فخذيني كما أنا.

قالت:

فإن لم يعجبني منك هذا.

قال:

فاحتمليه على أي حال فلعل عندي ما يهون عليك احتماله، أتريدين أن تطيلي الإقامة في نيس؟

قالت:

سأقيم أياما، وأنت؟

قال:

سأقيم فيها ما أقمت إن لم يثقل عليك ذلك، وسنرتحل معا حتى إذا كنا في بعض الطريق تخلفت أنت في مدينتك الجامعية الصغيرة فاصطليت فيها حر الصيف ونار العلم والأدب، ومضيت أنا الى باريس، ومن يدرى، لعل نار الأدب

والعلم أن تستهويني فأتخلف وقتا طويلا أو قصيرا، وهل أنا فراشة تستهويها النار، ولا تكره أن تحترق بها ؟

قالت في شيء من التفكير:

أنت مقيم في نيس ما أقمت، مرتحل عن نيس إذا ارتحلت عنها، متخلف حين أتخلف، مصطل للنار التي أريد أن أصطليها.

قال:

هذه خطة مرسومة، وكيف تريدين يا آنسة أن تغيري ما رسم القضاء؟

لغو الصيف[٩]

(4)

أيهما خير يا آنسة ؛ أن نفترق الآن لنلتقي غدا، أم أن نظل كما نحن رفيقين في السفر والإقامة؟

قالت:

بل أن نفترق لنلتقي بعد شهرين في القاهرة أو بعد شهر في باريس. وحسبنا أن قد أقمنا معاً أسبوعاً كاملا في هذه المدينة من مدن البحر نلتقي إذا أصبحنا، ونلتقي إذا أمسينا ولا يفرق بيننا إلا الليل.

قال:

فإنك إذا قد سئمت هذا اللقاء وطال عليك أمده، وأخذت تودين لو فرقت بيننا النوى دهرا طويلا أو قصيرا!

وما رأيك في أني بعيد كل البعد عن هذا السأم، كاره كل الكره لهذا الفراق الذي تحبينه وتطمحين إليه؟

قالت:

لك أن تفهم رأيي كما أحببت وأن تقدره كما شئت، وأن ترضى عنه أو تسخط عليه، فمن المحقق أني لم أره لك وإنما رأيته لنفسي، ومن المحقق أني لم أعلنه إليك إلا وأنا محتملة لنتائجه عالمة بموقعه من نفسك وتأثيره فيها، ولن يغير من رأيي ما تبدى وما تعيد، فقل لي: إلى اللقاء ودعني أهيئ أمري فقد دنت ساعة السفر.

قال:

ما شككت في أن ساعة السفر قد دنت، ولكن الذي أشك فيه هو أن دنو هذه الساعة يضطرنا إلى أن نفترق، فقد نستطيع أن نسافر معا كما أقمنا معا.

قالت:

فإني لا أريد.

قال:

ما رأيت كاليوم ظرفا ولا رفقا ولا حسن مودة للأصدقاء، سنفترق يا آنسة ما دمت حريصة على هذا الفراق فهل تأذنين في أن أصحبك إلى القطار.

قالت:

ولا هذا فإني لا أحب هذا الوداع السريع البطيء في وقت واحد. ولا أحب أن يفترق الناس لأن قوة غريبة عنهم تكرههم على أن يفترقوا فلنفترق منذ الآن واكتب إلي، ولعلنا نستطيع أن نلتقي في باريس. فإن أعيانا ذلك ففي القاهرة متسع للقاء المتصل والحديث الطويل.

ثم صافحته في قوة وعلى وجهها ابتسام يشبه العبوس، وفي وجهه عبوس يشبه الابتسام.

ولم يكد يقبل المساء حتى كانت ماضية في قراءتها لا يصرفها عنها شيء، كما كان قطارها السريع ماضيا في سيره لا يقفه عنه شيء وكانت حركة الناس من حولها لا تسكن، وحديث الناس من حولها لا ينقطع، وأصوات الناس من حولها لا تهدأ. ولكن شيئا من ذلك لم يكن ليلهيها عن هذا الكتاب الذي غرقت فيه. حتى إذا انتهت بها القراءة إلى شيء من الجهد والإعياء، ووضعت كتابها لتستريح ورفعت رأسها تجيل الطرف فيما حولها لم يرعها إلا صديقها الأديب جالسا

أمامها جلسة المتأدب الخاضع الذي ينتظر أن يفرغ سيده له ويلتفت إليه. فلما رأته لم تدهش ولم تنكر، ولكنها أظهرت ضيقا به وغضبا عليه، وقالت في لهجة حازمة:

أتعلم أني أكره هذا النوع من اللعب، وأنك توشك أن تغيظني وتحفظني وتصرفني عنك إن مضيت فيه؟

قال في صوت خافت غير مطمئن:

أعلم ذلك حق العلم وآلم له أشد الألم، ولو استطعت أن أكون عندما تحبين ما أثقلت عليك، ولا ترددت في طاعتك، ولا تحولت عما يرضيك. ولكن ما رأيك في أني لا أحب أن أموت.

قالت ولم تملك نفسها من ضحك غالبته فغلبها:

لا تحب أن تموت؟

قال:

نعم لا أحب أن أموت، ألم تفهمي بعد؟

قالت:

ومتى رأيتني أحل الألغاز؟

قال:

والغريب أنك قد عاشرت الفرنسيين فأطلت عشرتهم وأتقنت لغتهم وآدابهم الرفيعة والشعبية حتى كأنك واحدة منهم. فكيف يغيب عنك ما يتحدثون به كلما هموا برحيل أو فراق، وهل تعلمين شعراً وجد عددا ضخما من الرواة، تختلف طبقاتهم وتتفاوت منازلهم كهذا الشعر الذي ينشده الفرنسيون كلما هموا أن يفترقوا إنما السفر ضرب من الموت بالقياس إلى المحبين.

قالت وقد نسيت غضبها واطمأنت إلى طبعها، وخرجت من التكلف ولاءمت بين حديثها ومظهرها، وبين ما وجدت من الغبطة بلقائه الذي كانت ترجوه، والذي كانت تغضب وتحزن لو لم تظفر به:

فأنت إذا تريد إلى هذا اللغو من الحديث.

قال:

أنت تزعمين أنه لغو أما أنا فأراه الجد كل الجد، والحق كل الحق. ولولا أن السفر ضرب من الموت لما كرهه المحبون، ولا سخط عليه الشعراء، ولا تغنوا آلامه وأحزانه.

ولولا أن السفر ضرب من الموت حين يفرق بين الناس لما رأيتني الآن في هذا المكان بعد أن افترقنا على أن لا نلتقي حتى يمضي شهر أو أكثر من شهر.

ولكني فكرت بعد أن افترقنا، فرأيت أني ميت بالقياس إلى كل الأصدقاء الذين تركتهم في مصر، مهمل بالقياس إلى كل هؤلاء الناس الذين كانوا حولي في نيس، والذين سألقاهم في باريس، وأني لاحتفظ من الحياة إلا بشعاع ضئيل، هو هذا الذي أحسه حين أصحبك وأسمع لك وأتحدث اليك، فشق علي أن أجود بهذا الشعاع، وأن أسلم نفسي للموت المطبق والإهمال المطلق شهراً وبعض شهر، ولولا خوف الموت والضيق بالإهمال ما خرجت عن طاعتك ولا خالفت عن أمرك، ولا عرضت نفسي لهذا الغضب اللاذع وهذه الثورة المهينة.

قالت:

فقد عدت إلى ذكر الغضب والثورة كأنك تريد أن أنكرهما أو أعتذر منهما أو أنبئك بأني تكلفتهما تكلفا، واصطنعتهما اصطناعا.

قال:

لا تنكري شيئا ولا تعذري من شيء، فأنا معترف بأني ملح، وأنا معترف بأني مثقل في الإلحاح، ولكنك تعودت احتمالا لهذا الثقل، وتجاوزا عن هذا الإلحاح، فدعي حديثهما وحديث الغضب والثورة، وحدثيني عن هذا الكتاب الذي لم تكادي تقبلين عليه حتى ألهاك عن كل شيء، وصرفك حتى عن هذه المناظر البديعة الخلابة التي تعرضها عليك الطبيعة عرضا سريعا أثناء سير القطار.

قالت:

هذا كتاب تعجب إن عرفت أني أقرأه للمرة الخامسة، فأنا لا أعرف كتابا أهون ولا أيسر ولا أمتع ولا ألذ من هذا الكتاب أثناء السفر الطويل، أو حين يلح على الحزن الثقيل.

هذا كتاب من كتب كورتلين

قال:

هو كتاب (قطار الساعة الثامنة والدقيقة السابعة والأربعين)

قالت:

هو ذاك.

قال:

فإني لم أقرأه خمس مرات، لكني قرأته ثلاثا، ولولا أني علمت أني سأصحبك في القطار لقرأته للمرة الرابعة! فأنا مثلك معجب بهذا الكتاب إعجابا لا حد له، والغريب أني لا أدري بماذا أعجب من هذا الكتاب! بمعانيه أم بألفاظه أم بأسلوبه، أم بهذه الصور الرائعة التي يعرضها علينا في غير انقطاع؟ أم بهذا كله مما أعرفه، وما أحسه دون أن أعرفه، فهذا الكتاب عندي آية من آيات الأدب الفرنسي.

قالت:

وعند كثير من الفرنسيين أيضا، وإذا لم تكذبني الذاكرة فقد كان أناتول فرانس مشغوفاً به شغفاً عظيما، لست أدري أكان يعده بين آيات الأدب أم لا. وأني لأرجو أنه لم يضعه بين هذه الآيات فقد كان أناتول فرانس يضيق بآيات البيان ويرى أنها ثقيلة مملة، وليس في هذا الكتاب شيء من الثقل ولا الإملال.

قال:

ومع ذلك فان في هذا الكتاب ألفاظا لا تكاد تحصى وجملا لا يكاد يبلغها العد، وكلها خارج على النحو الفرنسي، مخالف لأساليب البيان المألوف.

قالت:

فهذا مظهر من مظاهر الجمال في هذا الكتاب، ومصدر من مصادر الإعجاب به، وسبب من هذه الأسباب التي تضطرنا إلى مراجعة النظر فيه. وما رأيك لو أن كورتلين أنطق أبطاله بهذه اللغة الفرنسية الفصحى، وأجرى على ألسنتهم هذه الجمل الأدبية الرائعة التي تجدها في كتب كورتلين نفسه وفي كتب غيره من الأدباء؟. إذا لما وجدت في الكتاب لذة كهذه اللذة التي أجدها الآن، ولعلي أن أعجز عن المضي في قراءته إلى آخره فضلا عن أن أقرأه مرات. إن للغة الفصحى خطرها وقيمتها، وهي مقياس البيان وظرف الأدب، ولكنها قد تسخف وتسمج إذا جرى بها لسان هذا الجندي الذي اتخذه كورتلين بطلا لقصته.

قال:

هذا حق ومهما أنس فلا أستطيع أن أنسى هذه الجملة الطريفة التي يرددها جندي كورتلين كلما وقف موقف الحرج أمام الكابتن: فلولا هذه اللحنة الظريفة الشائعة، التي تجري بها ألسنة العامة من الفرنسيين والتي أذاعها كورتلين، حتى تفكهت بها الخاصة لما كان لهذه الجملة موقع في النفس حسن، ولا منزل من القلب عجيب.

قالت:

وكل كلام الجندي وكلام رفاقه ظريف محبب إلى النفوس لأن ما فيه من اللحن والتواء الأسلوب يصور روح الشعب كما هي صريحة مستقيمة لا غموض فيها ولا التواء.

قال:

فأنت إذا من أصدقاء اللغة العامية وأنصارها، وماذا لو عرف أعلام البيان في مصر عنك هذا الرأي؟.

قالت:

لاأصنع شيئا فليس يعنيني أن يعرفني أو ينكرني أعلام البيان في مصر أو في غير مصر. وما تعودت قط أن أرى الرأي فاسأل نفسي عن حظه من رضى الناس أو غضبهم.

قال:

قد علمت ذلك حق العلم وجربته حق التجربة، ولم تمض ساعات على هذه التجربة اللذيذة الأليمة معا. ألست قد زعمت لي؟

قالت:

لم أزعم لك شيئا! فلا تعبث ولا تفسد علينا بهذا الاستطراد ما نحن فيه من الحديث، لست من أصدقاء اللغة العامية، ولكني لست من أعدائها. وما أذكر أني كتبت شيئا باللغة العامية، وما أظن أني سأكتب بها شيئا؛ لأني لا أحب ذلك، ولو أحببته ما قدرت عليه. ولست أرضى أن تصبح اللغة العامية لغة البيان الأدبي، ولا أعطف على كاتب يتعمد الكتابة بها ويتخذها ترجمانا لما يريد أن يعرضه من الخواطر والآراء، ولكني على هذا كله لا أستطيع أن أمحو هذه اللغة، ولا أستطيع أن أنكر أن لها جمالا تنفرد به أحيانا وتعجز عنه اللغة الفصحى. ولا أستطيع أن أمحوها من قلوب الأشخاص الشعبيين وأضع مكانها اللغة الفصحى، وأوفق مع ذلك إلى

تصوير هؤلاء الأشخاص الشعبيين تصويرا صادقا كل الصدق، جيداً كل الجودة، متقنا كل الإتقان.

قال وهو يبتسم ابتسامة ملؤها المكر والخداع:

ألا تعجبين أن ينتهي بنا الحديث عن كورتلين إلى الحديث عن توفيق الحيكم؟

قالت:

ومن توفيق الحكيم؟ ما سمعت به قبل اليوم!.

قال:

فأنت إذا من أهل الكهف.

قالت:

وأي عجب في أن أكون من أهل الكهف، ومتى زعمت لك أني أعرف الناس جميعا أو أقرأ للناس جميعا؟!.

قال:

فإن أهل الكهف عنوان قصة لتوفيق الحكيم هذا الذي لم تعرفيه ولم تسمعي به، وأؤكد لك أني اكره لك هذا الجهل.

فتوفيق الحكيم شاب خليق أن يعرف، ومن العيب كل العيب أن يجهله أديب شرقي. ولكنك قد أقررت على نفسك بأنك من أهل الكهف فلا لوم ولا تثريب.

قالت:

قد أقررت وأنا خليقة أن ألام فأنبئني عن توفيق الحكيم، وكيف انتهينا من حديث كورتلين إليه، وأي سبب بين هذا الشاب المصري وهذا النابغة الفرنسي؟

قال:

بينهما سبب لا أدري الآن ما هو، ولعله أن صدقت الظنون وتحققت الآمال أن يكون التفوق والنبوغ، ولعل الله قد أذن لمصر أن يكون فيها كورتلين كما كان في فرنسا.

قالت:

فإني لا أحب الإطالة، ولا أحب الالتواء، فأوضح وأبن عما تريد.

قال:

توفيق الحكيم يا آنسة شاب مصري، ظهر فجأة بقصة تمثيلية أنت أحد أشخاصها.

قالت:

أنا أحد أشخاصها!

ماذا تقول؟

قال:

نعم! لأن أشخاصها أهل الكهف، ولست أريد أن أطيل في تقريظ هذه القصة. وإنما أقول أني قرأت في هذا العام قصصا تمثيلية كثيرة ظهر بعضها بالفرنسية، وبعضها بالإنجليزية، وبعضها بغير هاتين اللغتين. وترجم أليهما أو إلى إحداهما، فكانت قصة أهل الكهف هذه خير ما قرأت من هذه القصص كلها وأحسنها موقعا من نفسي، وأشدها إثارة لإعجابي. ولست أدري أمعجب أنا بموضوعها أم بأسلوبها السهل، أم بألفاظها الساذجة أم بتحليلها الدقيق أم بهذا كله، ولست أشك في أن إعجابي بها سيضاعف منذ اليوم لأنك أحد أشخاصها. ومن يدري لعلك برسكا التي صورها توفيق الحكيم!

قالت وقد ضاقت بهذا المزاح:

لو كنت برسكا لما جهلت مبدعي!

قال:

كم بين الناس يعرفون مبدعهم؟

قالت:

وقد كتب صاحبك هذه القصة باللغة العامية؟

قال:

لا، بل بلغة لا تبعد كثيرا عن العامية. وليست هذه القصة هي التي ذكرت حين تحدثنا عن كورتلين، فان لتوفيق الحكيم قصة أخرى غير تمثيلية سماها عودة الروح. والغريب أن أهل الكهف ظفرت أول الأمر بإعجاب الشباب والشيوخ جميعا. فلما ظهرت عودة الروح تنكر لها بعض أعلام البيان في مصر، ودعا هذا التنكر بعضهم إلى أن يراجعوا إعجابهم بأهل الكهف فيخففوا منه ويقتصدوا فيه. أما الشباب فأضافوا إعجابا إلى إعجاب، ورضى إلى رضى وبدءوا يتخذون هذا الكاتب الشاب قدوة لهم ومثالا.

قالت:

وماذا ينكر أعلام البيان من عودة الروح؟

قال:

لغتها، فهي ككتاب كورتلين أبطالها شعبيون فينطقهم المؤلف بلغة الشعب. ولعله يغرق في ذلك بعض الشيء، وأعلام البيان يكرهون ذلك ويحرصون على إلا تظهر آيات البيان إلا في اللغة الفصحى، وهم يضنون بهذا الشاب على أن ينفق جهده الخصب ويضيع وقته العزيز في هذه اللغة المبتذلة،

قالت:

ولكن القصة نفسها ما رأيهم فيها؟ فليست القصة ألفاظا خالصة ولا معاني خالصة، وإنما هي قوام من الألفاظ والمعاني، ولا بد من أن يستقيم لها جمال اللفظ وجمال المعنى، فهب ألفاظها رديئة عند أعلام البيان فما حكمهم في معانيها؟

قال:

قرأها بعضهم لم يظهر رضى ولا سخطا، ولم يستطع بعضهم الآخر أن يقرأها فعابها لأن لغتها العامية صرفته عن قراءتها.

قالت:

فهذا بخل بالإنصاف وتجاوز للقصد، وقد شوقتني إلى أن أقرأ هذين الكتابين، ولكن هلا حدثتني عنهما حين كنا في القاهرة.

قال:

ومتى حدثتك في القاهرة عما كنت أريد أن أحدثك عنه، إنما نلتقي فتمضي الأحاديث بيننا كما تريد هي لا كما نريد نحن، ولولا أني سألتك عن هذا الكتاب الذي تقرئين لما جرى بينك وبيني ذكر لتوفيق الحكيم، وهل فرغنا من الحديث عن أنفسنا لنتحدث عن هذا الأديب الجديد.

قالت:

كم كنت أحب أن اظفر بكتابيه لأفِرَّ إليهما منك ومن نفسي فقد يخيل إلي أنا نسرف في الحديث عن أنفسنا ونغلوا في الإعراض عن غيرنا. وقد يخيل إلي أن بين هؤلاء الكتاب الناشئين من هم أحق بعنايتك وعنايتي من هذا اللغو الذي نخوض فيه كلما التقينا.

قال:

وعلى ذكر كورتلين وتوفيق الحكيم، ما رأيك في هذا الكتاب الفرنسي الجديد الذي كثر الكلام فيه، واختلف فيه أدباء فرنسا كما اختلف أدباء مصر في كتاب توفيق الحكيم؟

قالت:

وما ذاك أيضا؟

قال:

ماذا، ألم تقرئي كتاب سيلين الذي سماه سياحة في آخر الليل؟

ألم تقرئي ما كتب النقاد حول اللغة التي ألف فيها هذا الكتاب؟

قالت:

لا.

قال وهو يضحك:

معذرة فقد أنسيت أنك نائمة، وأنك من أهل الكهف.

قالت:

وقد رمته بكتابها مغيظة منه محنقة عليه: هبني نائمة فما لك لا توقظني وما اختلافك إلي في القاهرة، وما لزومك لي في نيس، وما مرافقتك لي في هذا القطار على كره مني.

قال وقد أغرق في الضحك:

إنما رافقتك في القطار يا آنسة لاوقظك، ولأخرجك من الكهف، ولأنبئك بأن في مصر شابا يقال له توفيق الحكيم، كتب قصة يقال لها أهل الكهف، وأخرى يقال لها عودة الروح. وبأن في فرنسا أديبا جديدا يسمي نفسه سيلين، وقد أظهر كتابا أسماه (سياحة في آخر الليل) اختلف الناس فيه اختلافا كثيراً.

قالت:

فيم اختلفوا.

قال:

في لغته فهو أيضا مسرف في حب العامية، وأنا معجب بكتابه إعجابا شديداً، مبغض للغته بغضا شديداً لأنه يتعمدها تعمداً ولا تدفعه اليها الحاجة ولا الضرورة ولا الرغبة في التصوير الصادق والتعبير الصحيح. وكل هذه الكتب عندي أستطيع أن أعيرك إياها لتقرئي وتحكمي ثم لنتحدث بعد ذلك.

قالت:

فابدأ بقصة أهل الكهف فأعرني إياها منذ الآن فسأنفق ليلتي بينها وبين كورتلين.

قال:

ولكن أليس خيرا منها ومن كورتلين أن ننفق ساعة أو بعض ساعة؛ لا أقول في الحديث فقد يظهر انك سئمته وضقت به؛ وإنما أقول في العشاء فإني أسمع جرس الخادم يدعو إليه؟!

بقية من لغو الصيف[١٠]

(5)

ليتك لم تأمري وليتني لم أطع. فمن صواب الناس ما يكون خطأ، ومن خطأ الناس ما يكون صوابا.

المرء بخير ما عرف لنفسه قدرها ولم يعد بها حقها، ولم يكلفها الحياة في النجوم، وقد خلقت لتحيا في الأرض. ولقد حاولت في غير طائل أن أعرف ماذا كنت تنكرين من صحبتنا في بلاد الغربة.

فقد كنا نلتقي ونفترق لا يكون بيننا إلا حديث نقي بريء فيه ذكر للأدب والأدباء، فما زلت تحبين ذلك وتظهرين كرهه، ما زلت تسرين الرغبة فيه، وتعلنين الضيق به حتى ملأت صدري ضيقا بنفسي، وحرجا بمكاني منك، وخيلت إلي أني أثقل عليك، وأكلفك من صحبتي مالا تطيقين، حتى إذا كان ذلك اليوم وليته لم يكن تقدمت إلي في الرحيل فامتنعت عليك وأسرفت في الامتناع، وألححت أنت وأغرقت في الإلحاح، ولم أجد بدا من الطاعة وإن كنت لها لكارها، ولم

تجدي بدا من المضي في الأمر، وإن كانت نفسك لتحدثك في العدول عنه.

ولم أكد استقر في باريس، ولم تكادي تستقرين في مدينتك الجامعية الصغيرة حتى اتصلت بينك وبين هذه الكتب والرسائل التي لا أستطيع أن أصفها بأقل من أنها برهان قوي ساطع. على أننا نخدع أنفسنا عن أنفسنا. ونتكلف في إرضاء الناس وأوضاعهم ما لا يحفل به الناس، ولا يلتفتون إليه، وما لانحتمله نحن إلا في جهد جاهد وعسر لا حد له.

والآن وقد أضعنا من حياتنا أياما طوالا كنت تترددين فيها على حجرات الدرس في الجامعة، وكنت أتردد فيها على الأندية وملاعب التمثيل أكتب إليك وقد أنىّ لي أن أعود إلى القاهرة. لعلك تأذنين في أن نلتقي مرة قبل أن أعبر البحر. ولست أدري أيقع هذا الكتاب منك موقع الرضى أو موقع السخط؟ ولكني أعلم أن الأيام معدودة علينا في هذه الحياة وأن من الحمق أن يستطيع الأصدقاء التلاقي ثم لا يلتقون، ينتظرون أن يتاح لهم ذلك في يوم آخر قريب أو بعيد. فمن يدري لعل هذا اليوم ألا يجيء.

ولعل الأحداث والخطوب أن تحول بين الأصدقاء وبين ما كانوا يقدرون من اللقاء فيه. ولو عقل الناس لما تفرقوا إلا حين لا يكون من الفراق بد، ولكن الغرور يغرهم بأنفسهم ويطمعهم في الأيام، فيخيل إليهم أنهم مخلدون وأنهم ليمرون بالحياة كما يمر الطيف بالنائم المغرق في النوم وقد تعجبين حين تعلمين إني لا أكتب إليك من باريس، وإنما أكتب إليك وقد دنوت منك حتى لم يبق بينك وبيني إلا مسير دقائق على الأقدام. فقد وصلت إلى مدينتك الجامعية مع المساء وأنا أكتب إليك وستقرئين كتابي مع الصباح فان أردت لقائي فهذا رقم التلفون، وإن أبيت فان القطار يبرح مدينتك إلى مرسيليا مع الظهر، ولن أراك حتى أعلم بأن رؤيتي لا تؤذيك ولا تثقل عليك، ولا تخيل إليك أنك تخرجين على ما ألف الناس من أوضاع وأطوار.

عجبت للأذكياء وكبار العقول إنهم ليأخذون أنفسهم أحيانا بما لا يلائم الذكاء ولا تسيغه العقول.

وكانت تختلف على وجهها الناصع وهي تقرأ هذا الكتاب مظاهر الوفاق والخلاف وآيات الرضى والسخط. فكان

وجهها يشرق حينا، وتغشيه ظلمة رقيقة حينا آخر. حتى إذا فرغت من قراءة الكتاب وضعته في رفق أمامها على المائدة ومدت بصرها كأنما تريد أن تبلغ به أقصى الآفاق. لولا هذه الجدران التي تقوم غير بعيد وتقف عينها عند حد محدود وأرسلت نفسها الحرة إلى أبعد مما استطاعت أن ترسل إليه بصرها السجين، وظلت على هذه الحال وقتا لم تعرف أطال أم قصر ثم عادت إلى نفسها وثابت إلى غرفتها من الفندق، وأخذت كتابها برفق، وأعادت النظر فيه، وظلت كذلك تنظر في الكتاب ثم تدعه، ثم تعود إليه.

حتى أدارت رأسها عن غير عمد فرأت التليفون، فقامت من غير عمد، وسعت إلى التليفون، ثم تحدثت فيه عن غير عمد، وعادت إلى مكانها، فأخذت الكتاب ونظرت فيه، ثم نظرت فيه، ثم طوته ثم أخفته، ثم ظهر عليها تردد شديد، كأنها تنبهت لأنها أتت أمرا عظيما وكأنها تراجع نفسها في استدراك ما فات، وإلغاء ما قدمت من الأمر، وكأنها تفكر في أن تتحدث إلى التلفون بغير ما تحدثت به إليه منذ حين.

ولكنها لم تبلغ من ذلك ما تريد لأن طرقا خفيفاً على الباب قد ردها عنه، واضطرها إلى أن تصلح من شأنها على عجل وترفع صوتها إذنة بالدخول. ولم يكد ينفرج الباب عن صاحبها الأديب حتى أقبلت عليه باسمة تحييه وتقول في جرأة متكلفة، واستحياء ظاهر:

إن كنت أقبلت للوم والعتاب فعد أدراجك وارجع من حيث أتيت، وخذ قطار الظهر. فان في كتابك من اللوم والعتب والفلسفة والتشاؤم ما يغني عن إضاعة الوقت.

قال:

فإن ما أضيعه من الوقت في اللوم والعتب لن يكون شيئا بالقياس إلى هذه الأسابيع الطوال التي أضعتها أنت حين أبيت إلا أن تقيمي هنا، واذهب أنا إلى باريس.

قالت:

فذلك شيء قد كان، وقد مضى بأثقاله وأوزاره وليس إلى استدراكه من سبيل فلست أرى خيرا في ذكره، ولا نفعا لإعادة الحديث فيه.

قال:

أما أنا فأرى في ذلك الخير كل الخير والنفع كل النفع، لأنك لم تستفيدي بما مضى ولن تنتفعي بذلك الفراق الطويل الأليم.

قالت:

وما يدريك؟

قال:

أرأيتك لو أنبأتك بأني سأقيم معك في هذه المدينة وسأختلف معك إلى دروس الجامعة حتى ينقضي الصيف ونعود معا إلى القاهرة، ماذا تصنعين؟

قالت:

أو قادر أنت على ذلك وقد انتهت إجازتك، ولم يبق لك بد من القفول.

قال:

فإن الإجازات تمد وإن الحيل أوسع من أن تضيق وإن رسالة برقية قد ذهبت إلى القاهرة خليقة أن تمنحني من الوقت

ما يتيح لي أن أختلف إلى حجرات العلم بعد أن أختلفت إلى معاهد اللهو والفراغ.

قالت كالواجمة:

أو فعلت هذا؟

قال:

نعم.

قالت:

فعد إلى باريس أو أذهب أنا إليها.

قال محزونا:

لابأس عليك فلن نلتقي في هذه المدينة إلا بياض هذا اليوم، ولكن كيف تريدين أن تقضيه؟ وأين تريدين أن تقضيه؟ فما أظن أن غرفتك هذه الضيقة تسع أحاديثنا وخواطرنا التي لاحد لها والتي ينبغي أن تكون حرة كالطبيعة الحرة. ومطلقة كالهواء الطلق. وإني لأعرف من هذه الأرض أكثر مما تعرفين.

قالت:

فإني لا أعرف منها إلا الجامعة والفندق والطريق بينهما.

قال:

أما أنا فلا أعرف الجامعة وإنما أعرف الجبل والسهل وأعرف الربى والوديان، وأعرف الغابات الملتفة والرياضة النضرة، والغدران الجارية، ذات الصفحات النقية، والصوت الجميل، وأعرف بنوع خاص ربوة بديعة يجرى من تحتها جدول بديع لا تقع القدم فيها إلا على عشب. ولا ترى العين فيها إلا جمال الشجر والزهر، ولا تسمع الإذن فيها إلا هفيف النسيم وحفيف الورق وغناء الطير، وقد دارت حولها طائفة من الشجر الباسق الذي ارتفع في الجو كأنه يريد أن يبلغ السماء، والذي مد أغصانه في كل وجه حتى التفت واشتبك بعضها ببعض، وهيأت فوق هذه الربوة الجميلة الهادئة غرفات جميلة هادئة تصلح لتفكير المفكرين، وحديث المتحدثين، والرأي عندي أن نقصد إلى هذه الربوة فننفق فيها بياض هذا اليوم فإني مشوق إلى أن أراها بعد أن فارقتها منذ أعواما وأن أراك فيها بعد أن فارقتك منذ أيام تعدل أعواما وأعواما.

قالت:

لا أرى بهذا بأسا ولكن على أن يسبق منك الوعد باثنتين أما أولهما فأن تكف عن اللوم والعتب وما يشبه اللوم والعتب من هذا التجني الذي تحسنه أكثر مما تحسن أي شيء آخر.

قال:

زعموا أن قيمة كل امرئ ما يحسن، فإذا كنت ترين أني ممتاز في التجني لا أكاد أحسن شيئا غيره وتطلبين إلي مع ذلك ألا أقصد إليه ولا أخوض فيه فأنت إذاً تريدين أن تضعيني موضع الذي يقول فيما لا يحسن، ويخوض فيما لا علم له به.

قالت:

ذهابنا إلى هذه الربوة الجميلة الهادئة رهين بهذا الوعد. فلك أن تختار بين الجد الخالص الذي لا عبث فيه ولا دعابة، ولا لوم فيه ولا عتب، ومعه ربوتك الجميلة الهادئة وغرفتك البديعة التي تصلح للتفكير والحديث، وبين ما تحب من العبث والخلط تذهب فيهما كل مذهب، وتندفع فيهما إلى غير الطريق.

قال:

أوحرنا في الاختيار، فإني إذن أختار الثانية وأوثر أن نطوف بالعبث والخلط في شوارع هذه المدينة الصغيرة الهادئة، لا يضيق بنا مكان إلا تركناه إلى مكان آخر، ولا نستنفد فنا من فنون السخف إلا عدلنا عنه إلى فن آخر. فإني أصبحت أرى السخف أقوم ما في الحياة.

قالت:

لقد أفسدتك باريس.

قال:

بل أفسدتيني أنت حين أكرهتيني على الذهاب إلى باريس

قالت:

فإني لا أدع لك حرية الاختيار وإنما أفرض عليك الربوة الجميلة الهادئة وحديثها البريء من العبث والتجني فرضا

قال:

لقد أطعتك حين نفيتني إلى باريس فأحرى أن أطيعك حين تذهبين بي إلى هذه الجنة الخضراء، وأكبر الظن أن طبيعة

هذه الربوة الجميلة الهادئة ستكون أقوى منك ومني وستوجه عقلينا وقلبينا إلى حيث تريد هي لا إلى حيث تريدين، ولا إلى حيث أريد.

قالت:

مادمت واثقا بالطبيعة إلى هذا الحد، مؤمنا لها إلى هذا الحد، فلنذهب إلى ربوتك ولنحكم جمالها وهدوءها فيما ستفيض به قلوبنا من شعور، وفيما ستضطرب به عقولنا من تفكير، وفيما ستجري به ألسنتنا من حديث.

وانتصف النهار وإذا هما في هذا المكان الجميل الذي خلت فيه الطبيعة إلى نفسها فاتخذت زينتها حرة طليقة لا متكلفة ولا خاضعة لعبث الناس. وإذا هما ينظران ويسمعان ويتنسمان هذا النسيم الهادئ القوي وقد أزيلت الحجب بين نفسيهما وبين ما في هذه الربوة من جمال هادئ قوي خصب مختلف الألوان. ولو قد خلي بينهما وبين ما كان يغرقان فيه من هذا الصمت الحلو الذي كان يمزجهما بهذه الطبيعة الحلوة لظلا صامتين هادئين حتى تزعجهما ظلمة الليل، فتخرجهما

عما كانا فيه من صمت وهدوء، ولكن الطبيعة نفسها أبت عليهما ما كانا فيه كأنها أحبت أن تسمعهما وكأنها أحبت أن تمتزج أصواتهما بأصواتها.

فما هي إلا أن يحسا نبأه تخرجهما من نعيم الصمت والذهول إلى شقاء الحديث والتفكير. أحسا نبأه فريعا لها، وهما أن يتعرفا مصدرها فلم يصلا مما أرادا إلى شيء ولكنهما تساءلا، وسمع كل منهما صوت صاحبه فأغري به واشتدت رغبته فيه، وعادا إلى ما كانا فيه من حوار، قبل أن يبلغا هذا المكان الجميل.

قال:

وإذاً فأنت تجدين من المشقة في قراءة القصص التمثيلي ما يرغبك عن هذه القراءة، وينفرك منها، ويحبب إليك قراءة هذا القصص اليسير الذي لا أخذ فيه ولا رد ولا جدال فيه ولا حوار.

قالت:

نعم وإن كرهت ذلك ورأيته آية من آيات الضعف ومظهرا من مظاهر القصور.

قال:

وكيف يكون ضعفا ما تحبين، وكيف يكون قصورا ما تكلفين به من الأمر؟

قالت:

تنبه فإني أراك مقدما على إخلاف الوعد الذي سبق.

قال:

فإني لم أعد بشيء على أني لا أدرى أين يكون هذا الإخلاف. لست عابثا، ولا متجنيا، إنما أقول ما أعتقد، وأصور ما أرى. وإني لأشعر بالنفور من قراءة التمثيل، وبالرغبة في الاكتفاء بهذا القصص اليسير.

قالت:

فإنك تكبر التمثيل إكبارا أراك تسرف فيه، فلست أجحد قدره ولا مكانه بين مظاهر التعبير الأدبي، ولكن التمثيل خلق للملاعب لا للمكاتب. وخلق لينفذ إلى النفس من طريق الإذن والعين، لا من طريق العين وحدها. وخلق لينفذ إلى النفس ممتزجا بأصوات المتحاورين وحركات اللاعبين، لا لينفذ إليها كلاما غير منطوق، وعملا لا يأتي به أحد من الناس.

قال:

حجة قوية هذه لا أريد ولا أستطيع أن أنقضها وليس من شك في أني أوثر أن أرى التمثيل في الملاعب على أن أخلو إليه في مكتبي، وأوثر أن أرى أشخاص القصة يذهبون ويجيئون، وأسمعهم يجادلون ويحاورون، ولكن ماذا أصنع إذا حيل بيني وبين الاختلاف إلى الملاعب، لأن ظروف الحياة لا تريد ذلك أو لأني أعيش في بلد لايزهر فيه التمثيل، ولا يكاد يزوره إلا لماما أو لأن آيات من القصص التمثيلي قد قطعت الطريق بينها وبين الملاعب.

أأجهل هذا الفن من فنون الأدب جهلا، وأهمله إهمالا، وأنسى أنه موجود وأن فيه للنفوس الراقية متاعا، وللعقول الراقية غذاء، وللقلوب الراقية لذة.

قالت وقد أخذها شيء من الدهش كأنما رفع عنها حجاب فرأت نورا باهرا لم تكن تنتظر أن تراه:

ماذا تقول! وأين ذهب بي الجدال! وإلى أي حد انتهى بي حب الخصومة.

قال:

إلى حيث تأتين ما لم يستطع الدهر أن يأتي وتصدرين أحكاماً عجز النسيان وعجزت الأيام وعجزت المحن والخطوب، وعجز الجهل والجمود عن أن تصدرها، إلى حيث تمحين من سجل التاريخ الأدبي أعلام الأدب القديم والحديث، إلى حيث تعتبرين ايشيل، وسوفوكل، وأوربيد، وأرستوفان، وشكسبير.

قالت في شيء من الجزع:

لا تقل هذا، وكيف السبيل إلى قبر هؤلاء الأعلام ومحو هذه الأسماء، وإهمال لهذه الآيات وإن أصحابها لأبقى من الدهر كله وأقوى من الناس كلهم، وأحق بالعناية ممن شئت وممن لم تشأ من أبطال العلم والأدب والفلسفة جميعا. ثم انحدرت من عينيها دمعتان وقالت بصوت رقيق تقطعه العبرة، كيف يمكن أن ينسى قول سوفوكيل على لسان أنتيجون في حوار الملك:

ولدت للحب لا للبغض.

قال:

مهلا، فإنا لم نأت إلى هذه الربوة الجميلة الهادئة، ولم ننزل ضيفا على هذه الطبيعة النضرة الباسمة لنسفح الدموع. ونثير في نفوسنا عواطف الحزن، وقد وعدتك أو قد وعدت نفسك بالا نعبث هنا ولا نلهو، ولكني لم أعدك، ولم تعدي نفسك بأن نبكي ونرسل الزفرات ونسفح العبرات.

قالت والهدوء يثوب إليها وإشراق الابتسامة الهادئ الخفيف يذود عن وجهها ما غشيها من ظلمة الحزن، والبكاء:

لولا شغفك بالجدال وكلفك بالحوار واحتيالك في خلق الخصومات التي لا تنتهي، ولما اضطررت إلى أن أتورط في هذا الكلام الذي لا يمكن أن يوصف إلا بأنه فن من فنون السخف أو لون من ألوان الجحود.

قال:

لست جاحدة، ومعاذ الله أن تكوني جاحدة، ولكني قلت لك أني أصبحت أرى أن السخف أقوم ما في الحياة.

قالت:

فكن سخيفا ما شئت. فإني لا أحب السخف. لا أحب أن أسمعه ولا أحب أن أخوض فيه، ولولا إننا هنا بعيدان عما أحب من الكتب لفرضت عليك عقوبة...

قال:

وهي أن اقرأ لك فصلا من فصول التمثيل، لأقيم لك الدليل على أن التمثيل يمكن أن يقرأ فيثير اللذة والإعجاب بعيدا عن الملعب.

قالت:

ولمن تريد أن تقيم الدليل وقد عرفت أني أشاركك في الرأي، وإني لم أقل ما قلت ولم أذهب إلى ما ذهبت إليه، إلا حين اضطررتني أنت إلى هذا الحوار الذي لا ينقطع، والذي لا خير فيه.

قال ماكرا:

ومن يدري لعلك إن حاورتك في الشعر أن تقولي إنه لا يقرأ. وإنما يسمع من المنشدين. ولعلي إن حاورتك في الموسيقى أن تقولي أنها لا تقرأ، وإنما تسمع من الموقعين.

قالت:

ومن يدري لعلك إن حاورتني في أي شيء أن تسيء رأيي في كل شيء، وأن تردني إلى حيث كان أسلافنا في العصور الأولى، لايعرفون الترف العقلي ولا يبتغون لذة العقل والشعور إلا من أقرب الطرق وأيسر الوسائل. فقد كانوا يسمعون الشعر ويسمعون الموسيقى ويسمعون التمثيل، لأنهم لم يكونوا يقرؤون فأما الآن فقد نستطيع نحن أن نسمع فإن فاتنا الاستماع فقد نستطيع أن نقرأ. وإني لأفكر في هذا فاعجز عن إحصاء نعمة الله على الناس حين ألهمهم الكتابة وعلمهم القراءة.

فهذه النعمة هي التي حفظت لنا ما بقي في أيدينا من آيات البيان في العصور القديمة وأتاحت لنا أن نعجب بما كان يعجب به الناس من سحر الشعر والنثر، منذ القرون الطوال. وهذه النعمة هي التي تتيح لنا دائما أن نستبقي آيات التمثيل التي لم يبق بينها وبين الملعب من سبيل، لأن الأذواق قد أصابها من التغير والتبدل ما جعل تمثيل هذه الآيات أمر لا

مطمع فيه، فلولا أنها قد حفظت لنا بالكتابة ولولا أننا نستطيع أن نحييها في نفوسنا بالقراءة. لماتت موتا لا نشور بعده وكيف ترى تمثيل ارستوفان، وأي قصصه يمكن أن يظهر في الملاعب الآن وأين الآذان التي تستطيع أن تسمع لحواره وما فيه من تجاوز الذوق الاجتماعي ومخالفة الأدب المألوف.

ومع ذلك فكيف يستطيع مثقف أن يجهل تمثيل أرستوفان، إني لأكره كل ما يشذ عن الأدب الذي تواضع عليه الناس ولأرفض كل الرفض أن اقرأ على أحد، أو أسمع من أحد كثيرا من قصص ارستوفان، بل إني لأكره أن أقرأ هذه القصص كما كان القدماء يقرؤون بصوت عال تسمعه الإذن، ولكني على ذلك اعترف باني أطيل النظر في هذه القصص وأقرأه المرة بعد المرة وأقرأه كلما ضقت بالحياة أو ضاقت بي الحياة، أقرأه بالعين لا بالشفتين واللسان.

قال:

ومالك تقفين عند أرستوفان وإن في آيات سوفوكل وصاحبيه لما يعجز الملعب عن إخراجه للناس الآن، لأن فن

التمثيل نفسه قد تغير وتبدل، ولكن أي حرمان يصيب المثقفين لو قضى عليهم أن لا يقرؤوا غناء الجوقة في شعر هؤلاء الأعلام. وشكسبير أيجب أن يحرم المصريون مثلا لذة الاستمتاع بآياته لأنها لا تمثل في بلادهم، بل أيحرم الإنجليز أنفسهم لذة الاستمتاع بآياته لأنها لا تمثل عندهم إلا بمقدار.

قالت:

بل نستطيع أن نذهب إلى أبعد من هذا فقد نستطيع أن نؤمن بأن القصص التمثيلي فن من فنون التعبير الأدبي يمكن أن يقصد إليه من حيث هو، وأن يكتب الكاتب قصة تمثيلية لتقرأ لا لتمثل.

قال:

فإنك لا تذهبين إلى شيء مستحدث وهل كانت كتب أفلاطون كلها إلا فنا من فنون التمثيل كتبت لتقرأ لا ليلعبها الممثلون أمام النظارة.

قالت:

بل أنا أجد القراءة تمنحني قوة لا أجدها حين أختلف إلى الملاعب فأنا أخلق الممثلين وأصورهم لنفسي وهم يذهبون

ويجيئون ويجادلون، وأخلع عليهم من الصور الفنية ما يعجبني ويلائم طبيعتي، ومزاجي، وفهمي كما أقرأ.

قال:

ولست أخفي عليك إني أكره أن أرى قصة تمثيلية قبل أن اقرأها، ولعلى أقرأ القصة التمثيلية فأعجب بها إعجابا، وأفتن بها فتونا. ثم أشهدها في الملعب فيدركني شيء كثير من خيبة الأمل لأن الممثلين لم يؤدوها كما كنت أريد أن تؤدى، أو كما كنت أنتظر أن تؤدى.

قالت:

وكذلك آيات الجمال الفني كلها ترتفع في النفوس حتى تبلغ المثل الأعلى أو تدنو منه فإذا اشتملتها الحياة الواقعة وأخرجها الإنسان إلى الوجود الفعلي نزلت عن مرتبتها لأن طبيعة الجمال الفني كلها ترتفع في النفوس حتى تبلغ المثل الأعلى أو تدنو منه فإذا اشتملتها الحياة الواقعة وأخرجها الإنسان إلى الوجود الفعلي نزلت عن مرتبتها لأن طبيعة الجمال الفني فيما يظهر لا تحب الحدود التي يفرضها الزمان والمكان.

قال في رفق:

مهلا فقد يخيل إلي أنا نصعد في السماء، ولو مضينا في هذا الحوار لبلغنا هذا السحاب الذي يوشك أن يفسد جمال هذه الطبيعة النضرة الباسمة.

قالت:

ليس إلى إرضائك اليوم من سبيل، لقد كنت تراني منذ حين مقصرة مسرفة في التقصير، وأنت تراني الآن محلقة مسرفة في التحليق.

قال:

أنا معجب بك على كل حال، ولكن ارفقي بي فقد أعجز عن أن أرتقي معك في الجو إلى حيث تريدين، عيشي مع أصدقائك من سكان النجوم إذا خلوت إلى نفسك فإذا لقيتني، فاذكري قول باسكال واعلمي أني مهما أقوى فلن أستطيع إلا أن أكون إنسانا يمشى على الأرض وينظر إلى السماء.

قالت:

ما أبرعك في إفساد الحديث ها أنت ذا تعود بنا إلى عبثك الذي لاينقضي، ألست ترى أن خيراً منه أن ننظر فيما حولنا

وأن تتحدث نفوسنا إلى نفس هذه الربوة التي لقيتنا فأحسنت لقاءنا. وهيأت لنا ضيافة لم نكن نقدر أن نلقاها.

قال:

لا أرى بذلك بأسا ولاسيما في يوم وداع فمن يدري لعلنا لا نلقاها بعد اليوم.

قالت:

وما يمنعنا أن نعود إليها غدا وبعد غد فإن الإجازات تمد، ورسالة برقية تستطيع أن تذهب إلى القاهرة مساء اليوم فتكفل لك الإذن بالبقاء هنا إلى آخر الصيف.

قال وقد استأثرت بنفسه غبطة لا حد لها:

أو تأذنين؟

من لغو الصيف إلى جد الشتاء[11]

(6)

كنا نلغو أثناء الصيف، فلنجدَّ أثناء الشتاء، وماذا كان يمنعنا من اللغو أثناء الصيف، وفي الصيف تهدأ الحياة ويأخذها الكسل من جميع أطرافها فتوشك أن تنام ولا تسير إلا على مهل يشبه الوقوف، وفي أناة تضيق بها النفوس. كل أسباب النشاط مؤجلة إلى حين، غرف الاستقبال مقفلة، وملاعب التمثيل مغلقة أو كالمغلقة، ولا تذكر الموسيقى والغناء، فمن للموسيقيين أو المغنين بهذا الجو القوي الحي الذي يبعث النشاط والخفة والمرح في النفوس والقلوب، وفي الألسنة والأيدي، جو ثقيل يستتبع فتوراً ثقيلاً، يضطر الناس إلى أن يغدوا على أعمالهم فاترين، ويروحوا إلى بيوتهم مثقلين، لا يكادون ينظرون إلى المائدة حتى ينصرفوا عنها، تنازعهم نفوسهم إلى النوم، وتنازعهم أجسامهم إلى أمهم الأرض، فلا يكادون ينظرون إلى سرير أو شيء يشبه السرير حتى يسرعوا إليه، ويلقوا بأنفسهم عليه، وإذا هم

يتصلون به ويتصل بهم، وإذا هم يمتزجون به ويمتزج بهم، وإذا هم يصبحون مثله شيئاً جامداً خامداً لا حركة فيه ولا حياة، إلا هذه اليقظة الفاترة البطيئة الثقيلة السمجة التي تلم بهم من حين إلى حين، حين يثقل عليهم الحر، ويشتد عليهم القيظ، فيفيقون أو يهمون بالأفاقة، ثم يغرقون في النوم ليفيقوا، ثم ليعودوا إلى الغرق فيه.

ثم ينحسر النهار عن الأرض بشمسه المحرقة الملتهبة، ويقبل الليل متثائباً، يبعث في الجو أنفاساً حارة، كأنها أنفاس العاشق الولهان المحروم قد أوقد الحب الخائب في قلبه ناراً مضطرمة قوية اللظى فلا تكاد أطراف هذا الليل الكسلان تمس الأرض حتى تبعث في الناس نشاطاً كسِلا يدفعهم إلى حركات متخاذلة، فيخرجون من بيوتهم متثاقلين قد ضاقوا بالدنيا وضاقت بهم. فهم يهيمون إن حملتهم أقدامهم يلتمسون مكاناً نضراً لعلهم يجدون فيه فضلاً من نسيم قد صافح الماء، وأطال عشرته بعض الوقت، فيحمل إلى وجوههم وإلى قلوبهم شيئا من هذا البرد الخفيف اللطيف الذي يردهم إلى شيء من الدعة والهدوء.

هنالك يريدون أن يخرجوا من أنفسهم وأن ينسوا أشخاصهم، فيعمدون إلى اللغو يقبلون عليه كما يقبل المريض على الطعام، لا يكادون يذوقونه إلا على كره وفي مضض، ولعل الجو أن يعتدل، ولعل الجو أن يرق، ولعل هذه الأشربة الباردة المثلوجة أن تخفف بعض هذا اللظى الذي يجدونه في نفوسهم وفي أجسامهم فتنطلق الألسنة من عقلها بعض الشيء، وتستطيع النفوس أن تحرك أجنحتها قليلاً وأن تصعِّد في الجو بعض التصعيد ويستطيع المرح الهادئ أن يبعث في القلوب شيئاً من الراحة والابتهاج. ثم يتقدم الليل ويذكر الناس أن الصبح سيشرق بعد حين ومعه الأعمال والأثقال، والتكاليف والحر والضيق، وإذا هم مضطرون إلى أن يعودوا إلى بيوتهم ويسعوا إلى مضاجعهم كارهين.

كذلك نقضي الصيف في بلادنا إن لم نكن من المترفين الذين لا يكادون يحسون الصيف حتى ليعبروا البحر إلى حيث يحيون حياة اخرى، أو لا يكادون يحسبون الصيف حتى يسرعوا إلى ساحل البحر، فيحيون حياة خير منها ما نحن فيه

من كسل وفتور، ومن تقصير وقصور، فلغو الصيف شيء طبيعي ملائم أشد الملاءمة لحياة الصيف.

أما الشتاء فشيء آخر كله فرح ومرح، وكله حركة ونشاط، وكله حياة خصبة عذبة منتجة، تجد فيه النفوس أقصى لذاتها، وتجد فيه الأجسام أقصى قدرتها على الاستمتاع. أكل كثير، وشرب كثير، واضطراب في الأرض كثير، وإقبال على العمل. ونسيان الكسل، وحياة مملوءة إلى حافتها، تفيض أو تكاد تفيض بما يفعمها من الآمال والأعمال. ثم ضيق بالحياة، لأن الحياة تضيق بما نريد. وتعجز عن أن تسع كل ما تسعه آمالنا ورغباتنا وشهواتنا، وقد كدت أنسى واجباتنا. وهل للواجبات مكان في حياة الشتاء هذه التي يفعمها الجنون؟ مسكينة هذه الواجبات! يطاردها فتور الصيف ويطاردها نشاط الشتاء فحظها من عنايتنا قليل دائماً.

ولعمري إنّا لمعذورون، أما عذرنا في الصيف، فلا يقبل جدالاً ولا مراء، ومن ذا الذي يستطيع أن يكلف الناس أن

يعملوا وهم عاجزون عن العمل، أو يكدوا وهم مصروفون عن الكد. والله عز وجل لا يكلف النفوس إلا وسعها، ولا يحمل الناس ما لا طاقة لهم به، واما في الشتاء فعذرنا أبلغ منه في الصيف، وكيف تريدنا على أن نفرغ للعمل، ونخلص للإنتاج، ونؤدي واجباتنا مشغوفين بها، مقبلين عليها، وحولنا من المغريات ما لا تقاومه إلا نفس سقراط أو أشباه سقراط، ومن يدري لعل سقراط لو عاش في أيامنا، واضطراب في بيئتنا، لكان رجلاً مثلنا تصرفه المغريات عن أن يعرف نفسه بنفسه، وعن أن يولد نفوس محاوريه ويخرج منها كل ما احتوت من حقائق العلم والحكمة، وفنون المعرفة وألوان الخير.

وقد زعموا أن امرأة سقراط كانت مسلطة عليه، وانه كان يخافها خوفاً شديداً، ويشفق منها إشفاقاً لا حد له، فلو عاشت امرأة سقراط في مدينة القاهرة وفي القرن العشرين لاتخذت لها يوماً في كل أسبوع، تستقبل فيه الزائرين والزائرات، فلا تكاد تطلع الشمس حتى تهيئ وتضطر زوجها إلى أن يهيئ

معها غرف البيت لاستقبال الزائرين والزائرات، وحتى تسعى وتضطر زوجها إلى أن يسعى معها إلى حيث تشتري ألوان الحلوى وفنون الزهر وصنوف الفاكهة، حتى إذا تقدم النهار ودنت الساعة الرابعة قامت واضطر زوجها إلى أن يقوم معها لاستقبال الأصدقاء وغير الأصدقاء، من هؤلاء الذين يغشون غرف الاستقبال لأنهم يَكلَّفُون بغشيانها، أو لانهم يكرهون غشيانها.

تكرههم عليه امرأة سقراط وأمثالها، لأن امرأة سقراط لاتغفر لفلان وفلان من العلماء والأدباء وأصحاب الفن أن يهملوها، أو ينصرفوا عن غرفة استقبالها، وهي تصر أشد الإصرار على أن يظهروا في بيتها مرة في كل اسبوع، حتى لا يقول صديقاتها أن غرفتها ليست حافلة بأعلام الفن وأفذاذ الأدب، ورجال المال والأعمال، فإذا فرغت امرأة سقراط وفرغ زوجها من الاستقبال وما فيه من حديث مختلف مؤتلف، معوج مستقيم، واضح غامض، خصب جدب، خطر بريء، فلم تنته امرأة سقراط ولم ينته سقراط من كل شيء، وإنما ابتدأ شيئاً لا سبيل إلى أن ينتهي، فهؤلاء الزائرون

والزائرات لابد أن ترد لهم الزيارات، لأنهم كسقراط وامرأة سقراط مضطرون إلى أن يستقبلوا كما كانوا مضطرين إلى أن يزوروا.

وكذلك تقضي امرأة سقراط ويقضي معها سقراط مساء كل يوم متنقلين من دار إلى دار، ومن غرفة استقبال، يقولان كلاماً، ويسمعان كلاماً، يصدِّقان ويكذِبان، وويل لسقراط إن أدركه الكسل أو أصابه الملل أو شغلته الفلسفة أو صرفه عن زيارة من هذه الزيارات حوار مهما تكن قيمته، ومهما يكن المحاورون، فأفلاطون وكسنوفون، وفيدون، وفيدر، كل هؤلاء يستطيعون أن يلقوه في داره يوم استقباله. أو في دار من هذه الدور التي تستقبل من الساعة الرابعة والثامنة من كل يوم، وإذا لم يكن بد من الحوار في الطبيعة أو في أي شيء من هذه الأشياء التي تنجم من الأرض، أو تهبط من السماء، فليدبر لهم سقراط وقتاً من هذه الأوقات التي يمكن فيها اللقاء دون أن تصرفه عن واجباته الاجتماعية وتعرضه للغضب، وأي غضب؟ غضب السيدات!

فإذا فرغت امرأة سقراط وفرغ معها سقراط من الاستقبال والزيارة وأقبل الليل، فالويل كل الويل للفيلسوف العظيم إن دعته نفسه إلى أن يعرفها، أو يحقق ما كان مكتوباً على معبد دلف (اعرف نفسك بنفسك) وأين يجد سقراط الوقت الذي يخلو فيه إلى نفسه إذا جنه الليل؟ فالليل لا يلقي على الأرض أستاره المظلمة ليأوي الناس إلى بيوتهم بل ليخرجوا منها، وكيف تريد، أن يأوي سقراط إلى بيته أو يخلو سقراط إلى نفسه، وهذه الأوبرا قد فتحت أبوابها، ومدت أسبابها، وأقبل عليها الممثلون والمغنون يعرضون بدائع التمثيل وآيات الغناء.

وهذه دور السينما تعرض في كل يوم جديداً، وهذه قاعة (يورت) يوقع فيها فلان، وقاعة (الليسيه) يوقع فيها فلان، وقد يجمع سقراط شجاعته كلها ويقول بقلب متردد ولسان متلعثم إنه لا يحب ما يمثل الليلة، أو ما يوقع، أو ما يغنى، وأنه يؤثر الراحة أو الانقطاع لبعض العمل، ولكن ويل لسقراط من هذه المقالة! فمن زعم له أنه سيشهد التمثيل أو

يسمع الغناء لأنه يحب أو لايحب، ولأنه متعب أو مستريح، إنما يشهد التمثيل ويسمع الغناء ويختلف إلى دور السينما لأن الناس يجب أن يروه في هذه المشاهد كلها، وإلا فليس هو من أهل القاهرة، ولا من ذوي المكانة فيها، وقد تظن أن سقراط حين يذهب إلى الملعب أو إلى دار من دور السينما أو إلى قاعة من قاعات الغناء يستطيع أن يفرغ للفن أو يستمتع به، فاطرد عن نفسك هذا الظن، واذكر أن هناك (الانتراكت) ومقابلات الانتراكت، وأحاديث النظارة والمستمعين عما رأوا وما سمعوا ويا لها من أحاديث تبغض الفن إلى أحب الناس للفن، يجب أن يكون لكل واحد من هؤلاء النظارة والمستمعين رأي يراه، وكلمة يقولها فيما رأى وما سمع، وقد يكون هذا الرأي سخفاً، وقد تكون هذه الكلمة جهلاً، وهما كذلك في أكثر الأوقات، ولكن سقراط مضطر إلى أن يسمعهما ويقرهما، أو يجادل فيهما مجادلة المقر الذي لا ينكر.

وهناك ما هو أثقل من ذلك، فيجب أن يكون لسقراط رأي يقوله وكلمة يقولها وإن لم ير شيئاً، وإن لم يرد أن يقول شيئاً

ذلك أنه إذا لم يقل كلمته اتهم بالجهل، أو وصف بالكبرياء، وكلاهما لا يليق بالحيوان الاجتماعي الذي ذكره ارسطاليس في كتاب السياسة، والذي يتألف منه ومن أمثاله سكان مدينة القاهرة، كما يتألف منه ومن أمثاله سكان باريس.

حتى إذا تقدم الليل عاد سقراط إلى بيته متعباً مكدوداً فأوى إلى مضجعه ولم يلبث أن يأسره النوم. ولعلك تظن أن تكاليف سقراط تقف عند هذا الحد، فما أشد إغراقك في الوهم! وأين أنت من المحاضرات؟ وما أدراك ما المحاضرات؟ محاضرات الجمعية الجغرافية، وأخرى في الجمعية الاقتصادية، وأخرى في قاعة يورت التذكارية، وأخرى عند جروبي، وأخرى في الكونتننتال، ولا بد لأسرة سقراط من أن تشهد هذه المحاضرات لتكون ظريفة متلطفة، مجاملة للمحاضرين والمحاضرات، ثم لتظهر أيضاً، أو لتظهر قبل كل شيء.

والمحاضرون قوم قساة لايحفلون بالناس ولايحفلون بأنفسهم، وإنما يحفلون بالمحاضرات، فهم يحاضرون في غير رفق، وهم يحاضرون في غير حساب، وهم يتنافسون

في المحاضرات وقيمتها وحظها من الجودة، بل في عدد المحاضرات وعدد المستمعين. والإعلان في الصحف؛ وقد تسوء الحال فيلقي محاضران محاضرتيهما في وقت واحد وفي مكانين مختلفين طبعاً، ويومئذ يضطر سقراط إلى أن يشهد إحداهما، وتضطر امرأته إلى أن تشهد الأخرى، فلا بد من ظهور أسرة سقراط في المحاضرتين جميعاً فإذا انتهى كل من المحاضرين تقدم إليه نصف الأسرة فهنأه وحياه واعتذر له عن النصف الأخر لأنه مشغول بمحاضرة فلان.

يا لهذا الفصل: فصل الشتاء! إنه يشغل الوقت، ويصرف الناس حتى عن الحياة، وقد تعطف الظروف على سقراط وتؤثره الأيام بخير ما عندها من اللذات والمتاع. وإذا هو مضطر إلى أن يستمتع رغم أنفه بتناول الشاي عند فلان، ثم بالاستماع لمحاضرة يلقيها فلان في الساعة السادسة، وأخرى يلقيها فلان في الساعة السابعة، ثم يخطف عشاءه خطفاً، ويلقي ملابس النهار ويتخذ ملابس الليل ليسرع إلى الأوبرا، ويل لسقراط إن لم يكن من أصحاب السيارات! وويل للسيارة وسائقها إن كانت لسقراط سيارة، من هذه الأيام العذاب

الكذاب أيام الشتاء، ثم حدثني بعد ذلك كيف يستطيع سقراط أن يفرغ لفلسفته ومعرفة نفسه وحوار تلاميذه إذا كان الصباح، وأين له القوة التي تمكنه من أن يفلسف أو يفتش عن نفسه أو يحاور أصدقاءه بعد هذا الجهد العنيف الذي أنفقه أو الذي احتمله منذ أقبل المساء إلى أن انقضى الليل أو كاد ينقضي، ومع ذلك فلا بد لسقراط من أن يعنى بفلسفته، ويبحث عن نفسه، ويجاور أصدقاءه، لأنه بذلك يعيش، ولذلك يعيش، زمن ذلك يعيش؟

أرأيت أن سقراط لم تظلمه الأيام حين جعلت حياته في القرن الخامس قبل المسيح في ذلك الوقت الذي لم تنشأ فيه الصالونات، ولم تكثر فيه المحاضرات، ولم تتعدد فيه ملاعب التمثيل وقاعات الغناء، ولم تظهر فيه دور السينما، لقد كان سقراط سعيداً حقاً، كان يشهد التمثيل أياماً في العام، مرة في الربيع حين يكون فصل التراجيديا، ومرة في الخريف حين يكون فصل الكوميديا.

وكان يختلف إلى بعض الدور: إلى دار بيركليس مثلاً، ليسمع بعض السفسطائية، وليحاور أو ليستمتع بجوار هذه

المرأة الجميلة زوج بيركليس. وكان ينفق ما تبقى من وقته، وهو أكثره من غير شك، متنقلا بفلسفته في شوارع أثينا، أو باحثاً عن نفسه في حمام أثينا وملاعب الرياضة فيها. وأنا واثق بأن سقراط لو خير بين حياتنا الحلوة العذبة، وبين سجنه الثقيل وما تناول فيه من السم لآثر السجن والسم على هذه اللذات الطوال الثقال التي نتحملها نحن في فصل الشتاء.

أرأيت أن الصيف هو الفصل الذي يحسن فيه اللغو، وأن الشتاء هو الفصل الذي لا يحسن فيه إلا الجد، ولايمكن فيه إلا الجد، ولعلك تظن أن ما حدثتك به هو كل ما في الشتاء من جد، فُذد عن نفسك هذا الوهم، ففي الشتاء جد آخر مر كله، لا حلاوة فيه، فأنت توافقني على أن الزيارة والاستقبال، والاختلاف إلى المحاضرات، وشهود التمثيل والاستماع للمغنين والموقعين، كل ذلك يحتاج إلى نفقات، فثياب الشاي غير ثياب التمثيل، ولكن ماذا أريد أن أقول؟ ومالي أدخل بك في هذا الحديث الذي لا فكاهة فيه ولا متاع؟

أهذا كل ما يحمل إلينا الشتاء من الجد؟

كلا ففي الشتاء جد آخر، جد خصب حقاً، جد نافع حقاً، جد نعيش منه، ونلهو به، ولا يجني منه أصحابه إلا حياة كلها خشونة وشظف وحرمان، هو جد هؤلاء الفلاحين الذين يعملون في الأرض، لا يحفلون بالبرد ولا يحفل بهم البرد، وفي الشتاء جد آخر، جد يمزق القلوب، ويعذب النفوس، ويبعث اللوعة والأسى في أفئدة الذين يعرفون الرحمة واللين، ويذكرون حين يلهون إن في الأرض قوماً آخرين يعذبهم الجوع، ويلح عليهم البرد، فيقضون ليالي خير منها ظلمة القبور، في الشتاء هذا الجو المظلم القاتم، المرهق المحرق الذي تصوره أجمل تصوير وأبلغه تلك الأغنية المشهورة أغنية الإحسان التي ما استطعت أن استقبل الشتاء منذ عرفتها دون أن أسمعها مرة ومرة.

هذا الشتاء يقبل، ومعه حاشيته الحزينة، إن الأشقياء ليألمون كثيراً في الشتاء، إن من الحق علينا أن نحميهم من هذا الشقاء، إن البرد لشديد في دورهم المقفرة!

من جد الشتاء[١٢]

(7)

من جد الشتاء أن تهنئ الزيات بعيدين يطلع بهما عليه فجر يوم واجد، هو هذا اليوم الذي تظهر فيه الرسالة للناس، وتشرق بهما عليه شمس واحدة هي شمس يوم الاثنين، ويستقبل فيهما ابتسامتين ما أعرف أن في الحياة شيئاً أحب إليه ولا أحسي في نفسه وقعاً، ولا أجمل في قلبه صورة، ولا أشد إحياء في الأمل واستدعاء للغبطة، وإثارة للابتهاج منهما، إحداهما مقصورة عليه أو كالمقصورة عليه.

استغفر الله، بل هي مقسومة بينه وبين شطر نفسه وشريكته في الحياة، وهي ابتسامة ابنه (رجاء)، والأخرى شائعة بينه وبين أصدقائه وأحبائه وخصومه وأعدائه في مصر كلها، وفي الشرق العربي كله، وفي كل طرف من أطراف الأرض تقرأ فيه اللغة العربية ويذاق فيها الأدب العربي، وهي ابتسامة بنته (الرسالة).

فقد رزق الزيات في مثل هذا اليوم من العام الماضي هذين الوليدين العزيزين، فسعد بأولهما في نفسه وأسرته، وسعد

بثنتيهما في نفسه وأمته، وأنفق عامه كله معنياً بتنشئ رجاء وتنمية الرسالة، يقصر جهد عقله على هذه، ويختص بفيض قلبه ذاك. ويجني من هذه كما يجني من ذاك هذه الثمرات الحلوة المرة، اللذيذة المؤلمة، التي يجنيها الأحياء من حب الأحياء والعناية بهم والانصراف إليهم عن كل شيء.

يبتسم رجاء للحياة فيبتسم قلب الزيات وتنعم نفسه، وتبتسم الرسالة للحياة فيبتسم عقل الزيات وينعم ضميره، تعرض آلام الحياة لرجاء فيكتئب قلب الزيات، ويأرق ليله وينغص نهاره، وتظلم الحياة في وجهه، وتعرض المصاعب للرسالة فيبتأس عقل الزيات ويقلق ضميره وتضيق به الأرض ويضيق هو بالأرض، لا يطمئن ولا يستريح ولا يتذوق لذة العيش إلا إذا استقبل النهار في بيته، وبابتسامة الرسالة خارج البيت. أليس من الجد أن نهنئ صديقنا إذا استدار العام وأقبل يوم الاثنين، فإذا رجاء يقبل على الحياة مبتسماً لها، مغتبطاً بها، آخذاً منها بهذا الحظ الحلو، الجميل الصفو، الخالص من كل شائبة، الذي لا يتاح إلى للأطفال، والذي أتيح لنا جميعاً

في وقت من الأوقات، ثم محته من نفوسنا وقلوبنا وذاكرتنا هذه الأيام التي تمضي وهذه الليالي التي تتبعها، فإذا نحن لا نذكره ولا نقدره، وإنما نأسى عليه ونود لو استطعنا أن نحقق المستحيل فنسعد لسذاجته النضرة، ونحتفظ مع ذلك بمصدر ما نكره من الألم والحزن، ومن الكآبة والشقاء، وهو العقل والضمير.

أليس من الجد أن نهنئ الزيات إذا استدار العام وأقبل يوم الاثنين، فإذا الرسالة تستقبل الحياة واثقة بإقبال القراء عليها وتأييدهم لها، وحرصهم على أن يستقبلوها كلما دار الأسبوع قوية نشيطة، ممعنة فيما هي فيه من تصوير الحياة الأدبية الشرقية، والآمال الأدبية الشرقية بما فيها من جد وهزل، ومن قوة وضعف، ومن أمل ويأس، ومن نور وظلمة، ومن نشاط وخمول. بل أن من الجد كل الجد أن نهنئ صديقنا بهذا اليوم السعيد لقلبه وعقله معاً. وأن نتمنى لصديقنا أن يستدبر الأعوام والأعوام، وأن يستقبل هذا اليوم كلما أتم الفلك دورته

بهاتين الابتسامتين اللتين تملان قلبه وعقله وضميره وغبطة واطمئناناً لأداء الواجب واستعداداً للنهوض بأعباء الحياة.

ومن جد الشتاء أن نذكر لهو الناس بلذات الشتاء، وما أكثر لذات الشتاء وما أعذبها، وما أشد تنوعها واختلافها، وما أحسن موقع بعضها من القلوب، وما أجمل أثر بعضها في النفوس، وما أقل حظنا من الرغبة في خيارها والإقبال على طيباتها. أما دور السينما فحافلة والحمد لله في جميع ليالي الأسبوع، وفي جميع أيامه، كثيرة ولكنها على ذلك مزدحمة بالمختلفين إليها، مكتظة عليها تعرض عليهم كثيراُ من السخف وقليلاً جداً من القيم المفيد، وهم بذلك راضون، وفي ذلك راغبون، لأنهم لا يبتغون إلا هذه اللذة اليسيرة القصيرة التي تلهيهم عن هموم الحياة وأثقالها ساعات من ليل، أو ساعات من نهار.

وأما دور التمثيل فالأمر فيها مختلف، منها العربي الذي يعيد ما يبدئ، ويبدئ ما يعيد، يصاحب الحياة دون أن يحيا، ويستقبل الأيام والليالي، لأن الأيام والليالي تمر به وتغمره

كما تمر بكل شيء، وكما تغمر كل شيء. لا يحدث جديداً ولا يبتكر طريفاً، والناس مع ذلك يغشون هذه الدور في كسل، وفتور لأنهم تعودوا أن يغشوها كما تعودوا أن يغشوا الأندية والقهوات ينفقون فيها ساعات فارغة من حياة فارغة. ثم يعودون إلى بيوتهم بنفوس فارغة وقلوب فارغة وأجواف ممتلئة. والله يعلم بأي نوع من أنواع الطعام والشراب، وأنك لتسأل نفسك وتسأل الناس وتسأل الأدباء، وتسأل النقاد عن القصة الطريفة من قصص التمثيل والآية البديعة من آيات الفن التي استقبلنا بها فصل الشتاء، فلا تظفر إلا بهز الرءوس ورفع الأكتاف وابتسامة فيها السخرية وفيها الحزن، وفيها اليأس من الحياة والازدراء للحياة والانصراف عما يجعل للحياة قيمة أو يجعلها خليقة بالتفكير والتقدير.

ومنها دار الأوبرا الملكية التي تنام تسعة أشهر، وتستيقظ ثلاثة أشهر من كل عام، تنام لأنها في بلد يحب النوم، وتستيقظ لأن قوماً من الأجانب يوقظونها كلما انتهى الخريف وأقبل الشتاء، وهم يوقظونها لأنهم يدعون إلى ذلك ويرادون

عليه. تدعوهم إلى ذلك الدولة. لأنها لا تريد أن ننام طول العام، أو لان يظن بنا الناس أننا ننام طول العام، أو أن يزورنا السائحون فلا يجدوا عندنا ما يلهيهم ويريحهم من تعب النهار. ويدعوهم إلى ذلك ضيفنا الأجانب الذين لا ينامون لا في الصيف ولا في الشتاء، ثم أيقاظ في بلادهم إذا أقبل الصيف، وهم أيقاظ في بلادنا إذا كان الشتاء، هم يلهون في بلادهم على حساب أنفسهم إذا أقبل الصيف، وهم يلهون في بلادهم على حسابنا نحن إذا أقبل الشتاء، والغريب أننا نلهيهم ولا نلهو معهم. وحق الضيافة على أقل تقدير يقضي علينا بأن نشاركهم فيما نقدم لهم من اللهو. ولكن أحصيت لي الطرابيش التي كانت في الأوبرا يوم الاثنين الماضي. فلم تبلغ العشرين. فأما العمائم فما لها وللأوبرا؟ وكيف يظن بها أن تختلف إلى هذه الدار؟!

الهوامش

1. طـه حســـين: تجـديد ذكرى أبي العلاء – ط6- دار المعـارف – القاهرة – 1963م – ص 11.
2. طه حسـين: في الشـعر الجاهلـي – دار الكتب المصـرية – القاهرة – 1926م.
3. طـه حســـين: المعذبون في الأرض – مكتبـة الأســـرة – الهيئـة المصرية العامة للكتاب – القاهرة – 1996م.
4. القصـــيدة مخطوطة منها صـــورة بخط يد الشـــعراوي وبتوقيعه ضمن لوحات وصور المعرض الذي أقامته مكتبة الإسكندرية في بيت السناري احتفالا بالذكرى الأربعين لوفاة طه حسين، وسوف تصـــدر مكتبة الإســـكندرية كتابا يضـــم هذه الوثائق جميعا ومنها نص القصيدة.
5. طه حسين: مجلة الرسالة – ع9- 1933م.
6. طه حسين: مجلة الرسالة – عدد 12- القاهرة – 1 يوليو 1933م – ص 5.

7. طه حسين الرسالة عدد 13 – القاهرة 15 يوليو 1933م – ص 5.
8. طه حسين، الرسالة، عدد 14، القاهرة، 1 أغسطس 1933م، ص 5.
9. طه حسين: مجلة الرسالة، القاهرة، ع 15، 15 أغسطس 1933م، ص5.
10. طه حسين: مجلة الرسالة، ع 21، القاهرة، 15 نوفمبر 1933م، ص5.
11. طه حسين: مجلة الرسالة، ع 24، القاهرة، يناير 1934م.
12. طه حسين: مجلة الرسالة،ع28، القاهرة، يناير 1934م.

المحتويات

رقم الإيداع

٢٠١٤ /١٧٥١٨

I.S.B.N

978-977- 07-1670-0

المؤلف



ولد محمود إبراهيم الضبع في ديسمبر ١٩٧٠

حصل على ليسانس كلية دار العلوم جامعة القاهرة (١٩٩٣)

دكتوراه في اللغة العربية من كلية البنات للآداب والعلوم والتربية، جامعة عين شمس (٢٠٠١)

عضو اتحاد كتاب مصر، وعضو لجنة الدراسات الأدبية واللغوية بالمجلس الأعلى للثقافة.

من درساته النقدية: الرواية الجديدة قراءة في المشهد العربي المعاصر، قصيدة النثر وتحولات الشعرية العربية، الحكمة في الشعر العربي، غوية التجريب حركة الشعرية العربية في الألفية الثالثة.

من مؤلفاته في التربية: الموسوعة العلمية في النحو والصرف، المناهج التعليمية صناعتها وتقويمها.

هذا الكتاب

هذه القراءة الثقافية في "لغو الصيف وجد الشتاء" لطه حسين، بما يحمله من أفكار ومفاهيم تمس الحداثة وما بعد الحداثة في صيغها العربية كما يمكن أن تكون، وتكشف كيفية حل المعادلة بين استلهام الوارد العالمي، والإعلاء من قيمة المحلي، وبين التراث والمعاصرة، وكيف يمكن لمسارات التجريب أن تنفتح استنادا إلى أسس، وليس استنادا إلى القطيعة مع التراث، أو الاعتماد على الوارد العالمي فقط.

ما أحوجنا إذا لقراءة نصنا العربي بوعي حضاري ينطلق من هويتنا العربية الثقافية دون الانفصال عن الثقافات العالمية والإقليمية على حد سواء، من هذه الوجهة نعيد قراءة طه حسين والتوقف أمام ملامح الوعي الحضاري والثقافي كما نأمل لها أن تكون عليه.